

التصوف علم إصلاح القلوب

الحبيب على الجفري
يصف التصوف

اعداد
تيسير كمال عزب

دار الروضة - للنشر والتوزيع

٢ درب الأتراك خلف جامع الأزهر
٥٩١٣٤٢٤ - ٥٠٦٦٨٨٤ فاكس : ٥٩٢٧٣٦٤

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م
حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع ١٠٣٥٩ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولي I.S.B.N.

977-3481-61-9

دار الروضة للنشر والتوزيع

المقدمة

إن الحمد لله نحمده نستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهديه الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢) .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء / ١) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب / ٧٠، ٧١) .

أما بعد :

فإن ظاهرة ضعف الإيمان وإفساد القلوب مما عم وانتشر في المسلمين، وعدد من الناس يشتكي من قسوة قلبه وتترد عباراتهم :

" أحس بقسوة في قلبي " " لا أجد لذة للعبادات " " أشعر أن إيماني في الحضيض " ، " لا أتأثر بقراءة القرآن " ، " أقع في المعصية بسهولة " ، وكثيرون آثار المرض عليهم بادية، وهذا المرض أساس كل مصيبة وسبب كل نقص وبلية .

وموضوع القلوب موضوع حساس ومهم، وقد سمي القلب قلباً لسرعة تقلبه قال ﷺ : (إنما القلب من تقلبه، إنما مثل القلب كمثل ريشة معلقة في أصل شجرة يقلبها الريح ظهراً لبطن) رواه أحمد ٤٠٨/٤ وهو في صحيح الجامع ٢٣٦٤ . وفي رواية (مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة الريح ظهراً لبطن) . أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة رقم ٢٢٧ وإسناده صحيح : ظلال الجنة في تخريج السنة للألباني ١٠٢/١ .

وهو شديد التقلب كما وصفه النبي ﷺ بقوله : (لقلب ابن آدم أسرع تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً) المرجع السابق رقم ٢٢٦ وإسناده صحيح: ظلال الجنة ١٠٢/١ . وفي رواية (أشد تقلباً من القدر إذا اجتمعت غلياناً) رواه أحمد ٤/٦ وهو في صحيح الجامع رقم ٥١٤٧ .

والله ﷻ هو مقلب القلوب ومصرفها كما جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء) ثم قال رسول الله ﷺ : (اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك) رواه مسلم رقم ٢٦٥٤ .

وحيث (أن الله يحول بين المرء وقلبه) وأنه لن ينجو يوم القيامة (إلا من أتى الله بقلب سليم) وأن الويل (للقاسية قلوبهم من ذكر الله) وأن الوعد بالجنة لـ (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) كان لابد للمؤمن أن يتحسس قلبه ويعرف مكن الداء وسبب المرض ويشرع في العلاج قبل أن يطغى عليه الران فيهلك والأمر عظيم والشأن خطير فإن الله قد حذرنا من القلب القاسي والمقلل والمريض والأعمى والأغلف والمنكوس والمطبوع المختوم عليه .

لذا كانت فراسة مدير ندوة الحبيب الجفري بجريدة الأهرام في تقديم سؤال في غاية الأهمية وتصدى لقضية خطيرة فقدت الأمة اليوم من يدافع عنها وأصبحت مسرحاً لمن يريد أن يعلو على الأكتاف فما عليه إلا أن ينال من الصوفية وأوضح فضيلة الشيخ المنهج كله في كلمه أخذناها من السؤال وبدئنا في شرحها حتى تعم الفائدة به إن شاء الله ... أسأل الله أن ينفعني بهذا العمل وإخواني المسلمين وأن يجزي بالجزاء الأوفى من ساهم في إخراجه وهو سبحانه المسؤول أن يرقق قلوبنا ويهدينا إنه نعم المولى وهو حسبنا ونعم الوكيل .

تيسير كمال عزب

نص السؤال

هذا السؤال قدم لفضيلة الشيخ بندوة بالأهرام قال من يدير الندوة:
أرى في حديث فضيلتكم صوفية عالية فهل تؤمن بأن الصوفية هي حل
لكل مشاكلنا الاقتصادية والسياسية وغيرها؟

الحبيب علي : الصوفية ليست الطواف حول القبور أو الصياح أو
لبس الثياب المرقعة وهناك من يراها (كارنيه) في طريقة أما
التصوف حقاً فهو علم إصلاح القلوب وهو منهج كامل متكامل لا صلة
له بالمعاني الخاطئة والتصورات المغلوطة التي ذكرتها الآن ومرجع
التصوف في الكتاب والسنة هو مراقبة الله مصداقاً لقول رسول الله
(الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وهذا العلم يختلف عن علم الفقه والحديث وبقية العلوم في أشياء
ويتفق معها في كثير من الأشياء فهو علم كامل له قواعده وأصوله ومن
الجهل أن نقول إن التسمية لم نسمع عنها أيام رسول الله ﷺ فننكر
الموضوع برمته والتصوف سمي هكذا لأن بعض الزهاد وبعض أقطابه
لبسوا الصوف كعلامة للبعد عن الدنيا وليست هناك علاقة بين التسمية
والمسمى فالفقه يعلمنا الأحكام والشرعية كيف نصلي؟ كم ركعة نصلي؟
كيف نتطهر للصلاة؟ كيف نصوم؟ أما التصوف فهو معنى لكيفية أن
تكون خاشعاً لله في صلاتك أو كيف يقبل منك الله عبادتك، كيفية التوجه
بقلب سليم إلى الله في كل معاملتنا؟ فالتصوف من هنا يعني بتهديب
النفوس وإصلاحها من أمراضها ولو تأملنا حال أمتنا وحال واقعنا

ومشكلاتنا اليوم سنجدها لا تحتاج منا إلا تنقية نفوسنا ليس أكثر إذن فالتصوف بمعناه هذا جزء أساسي من أجزاء الإسلام والتاريخ يحكي بطولات وأمجاد ومكانات كبيرة لأقطاب التصوف كالسيد أحمد البدوي وسيدي أبي الحسن الشاذلي وغيرهم كثيرين .

كيف تصلح القلوب ؟

أولاً: الإخلاص

قال ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات)، إنه أهم حديث، علمنا إياه ﷺ في كل شيء، في الصلاة والصيام والحج وغيرها..

قال ﷺ : (من غزا في سبيل الله ولم ينوي إلا عقلاً فلهوما نوى)..، كذلك فإن بعث الناس على حسب نياتهم : (إنما يبعث الناس على نياتهم)..

أهمية الإخلاص:

- ١- النجاة تكون بسببه في الآخرة.
- ٢- اجتماع القلب في الدنيا وزوال الهم لا يكون إلا به :
(من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر عليه) .

- ٣- مصدر رزق عظيم للأجر وكسب الحسنات (إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليه حتى ما تجعل في فم امرأتك) [رواه البخاري] .

٤- ينجي من العذاب العظيم يوم الدين فقد أخبرنا ﷺ عن أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة وهم متصدق أنفق ليقال جواد، وقاريء تعلم العلم وعلمه ليقال عالم، ومجاهد قاتل ليقال جريء... وهذا الحديث حدث به أبو هريرة فكان يغشى عليه من هو له كلما أراد التحديث به، ويمسح وجهه بالماء حتى استطاع التحديث به. وفي مجال عدم الإخلاص في طلب العلم يقول ﷺ : (من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لم يتعلمه إلا ليصيب به عرض من عرض الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة)، وقال: (من تعلم العلم ليماري به السفهاء أو ليباهي به العلماء أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار).

الإخلاص يريح الناس يوم يقول الله للمرائين اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء.

الإخلاص ينجي الإنسان من حرمان الأجر ونقصانه ولذلك فإن النبي ﷺ جاءه رجل غزى يلتمس الأجر والذكر فقال (لا شيء له) "ثلاثاً" إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه.

ابن مكرز رجل من أهل الشام قال : يارسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا فقال ﷺ : (لا أجر له) . فأعظم ذلك الناس فقالوا عد لرسول الله ﷺ فلعلك لم تفهمه فقال له (لا أجر له).

قال ﷺ : (قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه).

كذلك الإخلاص هو أساس أعمال القلوب، وأعمال الجوارح تبع ومكمل له، الإخلاص يعظم العمل الصغير حتى يصبح كالجبل، كما أن الرياء يحقر العمل الكبير حتى لا يزن عند الله هباءً، لقوله تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ (الفرقان: ٢٣)

قال ابن المبارك: ((رب عمل صغير تكثره النية ورب عمل كبير تصغره النية)).

الإخلاص مهم جداً لأن أغلب الناس يعيشون في صراعات داخلية ويعانون من أشياء فحرموا البركة والتوفيق إلا من رحمه الله، فكيف يكون النصر وتعلم العلم إلا من المخلصين، الإخلاص مهم في إنقاذنا من الوضع الذي نعيش فيه، فقد أصبح عزيزاً نادراً قليلاً، مشاريع ودعوات تلوّثت بالرياء، حركات إسلامية دمرت بسبب افتقاد الإخلاص وبعد أن أريد بها الرئاسة والجاه والمال..

يقول ابن أبي جمرة وهو من كبار العلماء: وددت لو أنه كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلا، فإنه ما أتى على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك.

ومن فوائد الإخلاص أنه يقلب المباحات إلى عبادات وينال بها عالي الدرجات، قال أحد السلف: إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي ونومي ودخولي الخلاء وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التفرغ إلى الله. لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب للمهمات مطلوب سراً.

النية عند الفقهاء: تمييز العبادات عن العادات وتمييز العبادات عن بعضها البعض، إرادة وجه الله ﷻ .

الإخلاص ينقي القلب من الحقد والغل ويسبب قبول العمل لأن النبي ﷺ قال: ((إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه)) .

الإخلاص سبب للمغفرة الكبيرة.

والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه فيغفر فيه كبائر، وإلا فأهل الكبائر كلهم يقولون لا إله إلا الله. كالبغي التي سقت كلباً فقد حضر في قلبها من الإخلاص ما لا يعلمه إلا الله فغفر الله لها.

تتفيس الكروب لا يحدث إلا بالإخلاص، والدليل على ذلك حديث الثلاثة الذين حبستهم صخرة ففرج الله همهم، وكان منهم الرجل الذي وفي عاملاً أجره ونماه وصبر على ذلك سنين، وقد كان يقول كل واحد منهم اللهم إنك إن كنت تعلم أننا فعلنا ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه.

وبالإخلاص يرزق الناس الحكمة، ويوفقون للصواب والحق ﴿ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (الأنفال: ٢٩)، وبالإخلاص يدرك الأجر على عمله وإن عجز عنه بل ويصل لمنازل الشهداء والمجاهدين وإن مات على فراشه ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ (التوبة: ٩٢) . وقال ﷺ : ((إن أقواماً خلفنا في المدينة ما

سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العذر) (رواه البخاري). وفي مسلم: (إلا شاركوكم في الأجر).

بالإخلاص يؤجر المرء ولو أخطأ كالمجتهد والعالم والفقير، وهو نوى بالاجتهاد استفراغ الوسع وإصابة الحق لأجل الله، فلو لم يصب فهو مأجور على ذلك..

فالمرء ينجو من الفتن بالإخلاص، ويجعل له حرز من الشهوات ومن الوقوع في براثن أهل الفسق والفجور، لذلك نجى الله يوسف عليه السلام من امرأة العزيز ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿أُولَئِكَ هُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ ﴿فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (الصافات: ٤٠-٤٣)

الإخلاص في التوحيد: قال ﷺ : ((ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر)).

-في السجود: قال ﷺ : ((ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط بها عن خطيئة)).

-في الصيام: قال ﷺ : ((من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه))، ((من صام يوماً في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً)).

-في قيام الليل: قال ﷺ : ((من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)).

- الإخلاص في ترك الحرام، المحبة في الله، الصدقة.... (حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله).

- الإخلاص في الخروج إلى المساجد ((خرج للمسجد لا يخرج إلا الصلاة لم يخطو خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت به خطيئة، فإن صلى ما دامت الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه اللهم صل عليه اللهم صل عليه اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة)).

- الإخلاص في طلب الشهادة: ((من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه)).

- الإخلاص في اتباع الجنائز: ((من اتبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً وكان معه حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقيراطين كل قيراط كأحد ومن صلى ثم رجع قبل أن يدفن فإنه يرجع بقيراط)) .

- الإخلاص في التوبة: ((قصة قاتل المائة نفس وملائكة الرحمة)).

الإنسان يحتاج أن يبين لنفسه بالكلام أشياء مما ينويه حتى يزداد أجره كرجل ليس لديه مال فيقول لو كان لي مثل هذا عملت مثلاً يعمل. قال ﷺ : ((فهما في الأجر سواء)).

لقد مر في الأمة كثير من المخلصين كانت سيرتهم نبراساً لمن بعدهم وقدوة وخيراً، لذلك أبقى الله سيرتهم وذكرهم حتى يقتدي بهم من بعدهم وعلى رأس هؤلاء الأنبياء، النبي محمد ﷺ وحواريو الأنبياء والصحابة الذين فتحوا البلاد بإخلاصهم ومن بعدهم من التابعين..

✽ يقول عبدة بن سليمان: كنا مع سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم، فلما التقى ساعة قطعناه ازدحم الناس عليه ليعرفوا من هو فإذا هو يلثم وجهه، فإذا هو عبد الله بن المبارك فقال لائماً أعنت يا أبا عمر ممن يشنع علي.

✽ يقول الحسن: إن كان الرجل جمع القرآن ولما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لينفق النفقة الكثيرة ولما يشعر الناس به، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته ولم يشعر الناس به، ولقد أدركت أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملونه في السر فيكون علانية أبداً.

لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم ((ادعوا ربكم تضرعاً وخفية)).

✽ يقول علي بن مكار البصري الزاهد: ((لأن ألقى الشيطان أحب إلي من أن ألقى فلاناً أخاف أن أتصنع له فأسقط من عين الله)) فقد كان السلف يخشون من قضية المجاملات.

✽ قال الذهبي: يقول ابن فارس عن أبي الحسن القطان: ((أصبت ببصري وأظن أنني عوقبت بكثرة كلامي أثناء الرحلة)) قال الذهبي: صدق والله فإنهم كانوا مع حسن القصد وصحة النية غالباً يخافون من الكلام وإظهار المعرفة.

✽ قال هشام الدستوائي: ((والله ما أستطيع أن أقول إنني ذهبت يوماً قط أطلب الحديث أريد به وجه الله ﷻ)).

❁ يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ((فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وما بين الناس)).

❁ ومن عجائب المخلصين ما حصل لصاحب النفق، حاصر المسلمون حصناً واشتد عليهم رمي الأعداء، فقام أحد المسلمين وحفر نفقاً فانتصر المسلمون، ولا يُعرف من هو هذا الرجل، وأراد مَسَلَمَةٌ يريد أن يعرف الرجل لمكافأته، ولما لم يجده سأله بالله أن يأتيه، فأتاه نزيل وسأله شرطاً وهو أنه إذا أخبره من هو لا يبحث عنه بعد ذلك أبداً، فعاهده، وكان يقول : ((اللهم احشرنى مع صاحب النفق)).

وعمل الخلوة كان أحب إلى السلف من عمل الجلوة.

❁ يقول حماد بن زيد : كان أيوب ربما حدث في الحديث فيرق وتدمع عيناه، فيلتفت وينتخط ويقول ما أشد الزكام!!، فيظهر الزكام لإخفاء البكاء.

❁ قال الحسن البصري: ((إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته فيردها فإذا خشي أن تسبقه قام وذهب وبكى في الخارج)).

❁ يقول محمد بن واسع التابعي: ((إن كان الرجل ليبيكي عشرين سنة وامرأته لا تعلم)).

❁ للإمام الماوردي قصة في الإخلاص في تصنيف الكتب، فقد ألف المؤلفات في التفسير والفقه وغير ذلك ولم يظهر شيء في حياته لما دنت وفاته قال لشخص يثق به: الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي وإنما إذا عاينت الموت ووقعت في النزع فاجعل يدك في يدي

فإن قبضت عليها فاعلم أنه لم يقبل مني شيء فاعمد إليها وألقها في دجلة بالليل وإذا بسطت يدي فاعلم أنها قبلت مني وأني ظفرت بما أرجوه من النية الخالصة، فلما حضرته الوفاة بسط يده، فأظهرت كتبه بعد ذلك.

كان علي بن الحسن يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع به المساكين بالظلمة، فالصدقة تطفئ غضب الرب، وكان أهل بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين معاشهم، فلما مات عرفوا، ورأوا على ظهره أثراً مما كان ينقله من القرب والجرب بالليل فكان يعول ١٠٠ بيت .

تلك الأحوال والقصص أظهرها الله ليكون أصحابها أئمة ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤) .

❁ وهكذا كان أحدهم يدخل في فراش زوجته فيخادعها فينسل لقيام الليل وهكذا صام داود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله فكان يأخذ إفطاره ويتصدق به على المساكين ويأتي على العشاء..

❁ وهذا أعرابي كان مع النبي ﷺ وقال له أهاجر معك، فغنموا بعد خير وقسم للأعرابي وأصحابه وكان يرعى دوابهم فلما جاءوه قال للنبي ﷺ ما هذا الذي وصلني؟ ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمي إلى هاهنا بسهم فأموت فأدخل الجنة. قال ﷺ : ((إن تصدق الله يصدقك)) ، فلبثوا قليلاً وهاجموا العدو وأثاب الله الأعرابي كما طلب فقبل أهو أهو قال ﷺ : ((صدق الله فصدقته)) فكفن في جبة النبي ﷺ ثم قدمه فصلى عليه فكان فيما ظهر من دعاء النبي ﷺ في الصلاة ((اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك وقتل شهيداً أنا شهيد على ذلك)) .

قال بعض العلماء في الإخلاص :

❦ قال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله عبداً أحب الشهرة.

❦ قال بعضهم: ينبغي للعالم أن يتحدث بنية وحسن قصد، فإن أعجبه كلامه فليصمت وإن أعجبه الصمت فلينطق. فإن خشي المدح فليصمت ولا يفتر عن محاسبة نفسه فإنها تحب الظهور والثناء.

❦ سئل سهل بن عبد الله التستوري : أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب. فمع الإخلاص تنسى حظوظ النفس.

❦ قال سفيان: ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي إنها تتقلب علي. إذا أراد أن يجاهد نفسه يجد تقلبات، ولا يدري أهو في إخلاص أم رياء، وهذا طبعي أن يشعر أنه في صراع لا تسلم له نفسه دائماً فهو يتعرض لهجمات من الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، وهذا فيه خير، أما من اطمأنت نفسه بحاله فهذه هي المشكلة.

❦ قال ابن يحيى بن أبي كثير: تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل.

❦ قال الزبيد اليامي: إني أحب أن تكون لي نية في كل شيء حتى في الطعام والشراب.

❦ عن داود الطائي : رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية وكفاك به خيراً وإن لم تتضب. أي حتى وإن لم تتعب فإن ما حصلته من اجتماع نفسك لله وإخراج حظوظ النفس من قلبك، هذا أمر عظيم.

ﷺ أبو بكر الصديق ﷺ ما سبق الناس بأنه كان أكثرهم صلاة وصيام بل بشيء وقر في قلبه.

ﷺ قال داود: البر همة النقي، ولو تعلقت جميع جوارحه بحب الدنيا لردته يوماً نيته إلى أصلها.

ﷺ قال يوسف بن أسباط: تخلص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد.

ﷺ قيل لنافع بن جبير : ألا تشهد الجنابة فقال: كما أنت حتى أنوي. أي انتظر حتى أجاهد نفسي.

ﷺ قال الفضيل: إنما يريد الله ﷻ منك نيتك وإرادتك.

ومن أصلح الله سريره أصلح الله علانيته ومن أصلح ما بينه وما بين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، وما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله في صفحات وجهه وفلتات لسانه.

والمخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته ومن شاهد في إخلاصه الإخلاص فإن إخلاصه يحتاج إلى إخلاص.

تنبيهات في مسألة الإخلاص :

١- متى يكون إظهار العمل مشروعاً؟

قال ابن قدامة: {فصل في بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات} قال: وفي الإظهار فائدة الإقتداء، ومن الأعمال ما لا يمكن

الإسرار به كالحج والجهاد، والمظهر للعمل ينبغي أن يراقب قلبه حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفي بل ينوي الإقتداء به {إذا ينبغي أن نحسن نيأتنا في الأعمال المظهرة لندفع الرياء وننوي الإقتداء لناخذ الأجر}، قال ولا ينبغي للضعيف أن يخدع نفسه بذلك، ومثل الذي يظهره وهو ضعيف كمثّل إنسان سباحته ضعيفة فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبل إليهم فتشبثوا به وغرقوا جميعاً.

المسألة فيها تفصيل :

- الأعمال التي من السنة أن يكون عملها سرّاً يسراً.

- الأعمال التي من السنة أن يظهرها يظهرها.

- الأعمال التي من الممكن أن يسرها أو يظهرها، فإن كان قوياً يتحمل مدح الناس وذمهم فإنه يظهرها وإن كان لا يقوى فيخفي، فإذا قويت نفسه فلا بأس في الإظهار لأن الترغيب في الإظهار خير.

ورد عن بعض السلف أنهم كانوا يظهرون بعض أعمالهم الشريفة ليقنّدي بهم كما قال بعضهم لأهله حين الاحتضار ((لا تبكوا علي فإني ما لفظت سيئة منذ أسلمت)).

قال أبو بكر بن عياش لولده ((يا بني إياك أن تعصي الله في هذه الغرفة فإني ختمت القرآن فيها اثنتا عشرة ألف ختمة)) من أجل موعظة الولد، فمن الممكن أن يظهر المرء أشياء لأناس معينين مع بقاء الإخلاص في عمله لقصد صالح.

٢- ترك العمل خوف الرياء، وهذا منزلق كشفه الفضيل بن عياض: ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما. قال النووي: من عزم على عبادة وتركها مخافة أن يراه الناس فهو مرائي "لأنه ترك لأجل الناس" لكن لو ترك العمل ليفعله في الخفاء. فمن ترك العمل بالكلية وقع في الرياء، وكذلك من كان يستحب في حقه إظهار العمل فليظهره كأن يكون عاملاً يقتدى به أو أن العمل الذي يعمل به المشروع فيه الإظهار.

٣- أن من دعا إلى كتم جميع الأعمال الصالحة من جميع الناس؛ هذا إنسان خبيث وقصده إماتة الإسلام، لذلك المنافقون إذا رؤوا أمر خير وسموه بالرياء، فهدفهم تخريب نوايا المسلمين وأن لا يظهر في المجتمع عمل صالح، فهؤلاء ينكرون على أهل الدين والخير إذا رؤوا أمراً مشروعاً مظهراً خصوصاً إذا أظهر عمل خير معرض للأذى فيظهره احتساباً لإظهار الخير فيستهدفه هؤلاء المنافقون فليصبر على إظهاره ما دام الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ (التوبة: ٧٩).

علامات الإخلاص:

- ١- الحماس للعمل للدين.
- ٢- أن يكون عمل السر أكبر من عمل العلانية.
- ٣- المبادرة للعمل واحتساب الأجر.

٤- الصبر والتحمل وعدم التشكي.

٥- الحرص على إخفاء العمل.

٦- إتقان العمل في السر.

٧- الإكثار من العمل في السر.

ثانياً: التوكل:

التوكل مقام جليل عظيم الأثر، بل ومن أعظم واجبات الإيمان وأفضل الأعمال والعبادات المقربة إلى الرحمن، وأعلى مقامات توحيد الله ﷻ، فإن الأمور كلها لا تحصل إلا بالتوكل على الله والاستعانة به، ومنزلة التوكل قبل منزلة الإنابة لأنه يتوكل في حصول مراده فهي وسيلة والإنابة غاية، وهو من أجل المراتب وأفضلها وأعمها قدراً..

✽ التوكل نصف الدين والنصف الثاني الإنابة فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة.

والتوكل متعلق بكل أمور العبد الدينية التي لا تتم الواجبات والمستحبات إلا بها. ومنزلته أجمع وأوسع المنازل ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العالمين!!

✽ التوكل يتعلق بكل شيء واجبات ومستحبات ومباحات ولقد كثرت حوائج الناس ولا بد لهم من التوكل على الله في قضائها.

✽ فمنزلة التوكل تشتد الحاجة إليها وعباد الله تعالى حقاً إذا

نابهم أمر من الأمور فروا إلى الله منيبين إليه ومتوكلين عليه، وبذلك يسهل الله الصعاب وييسر الله العسير ويحقق العبد ما يريد وهو مطمئن البال هاديء النفس راضٍ بما قضاه الله ﷻ وقدره.

❦ ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل من مكانه وكان مأموراً بإزالته لأزاله.

فالمسلم لا يرى التوكل على الله في جميع أعماله واجباً فقط بل يراه فريضة دينية ليس متعلقاً فقط بالأمور الدينية بل بالأمور الدنيوية وليس بالأمور الدنيوية وطلب الرزق فقط بل بعبادة الله ﷻ فهو عقيدة ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢٣) ولهذا كان التوكل على الله نصف الدين، بل هو الواجب لأنه أصل من أصول الإيمان .

❦ فإن التوكل من على الله واجب من اعظم الواجبات كما أن الإخلاص لله واجب وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء وغسل الجنابة، ونهى عن التوكل على غيره سبحانه.

❦ والتوكل جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا لا يتصور وجوداً بدونها.

فالتوكل هو أحد مباني التوحيد الإلهية كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١). وأيضاً يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢) (هود: ١٢٣). وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٩).

وهذا التوكل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين كما في صفة السبعين ألفاً، فالذي يحقق التوكل ليس كل الناس بل هم طائفة قليلة من الناس ذكرهم النبي ﷺ : ((هذه أمتك يدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفاً بغير حساب ثم دخل ولم يبين من هم وما هي صفاتهم فأفاض القوم وقالوا نحن الذين آمنّا بالله واتبعنا رسوله فنحن هم أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام فإننا ولدنا في الجاهلية فبلغ النبي ﷺ هذا القول منهم فخرج وقال : هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتونون وعلى ربهم يتوكلون)).

❦ فقال عكاشة بن محصن: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال نعم، فقال آخر أمنهم أنا؟ فقال ﷺ : ((سبقك بها عكاشة — أو عكاشة)).

وكان من الصحابة المتوكلين عمران بن حصين وهو من سادات المتوكلين، ﷺ، الذي كان به بواسير وكان يصبر على ألمها فكانت الملائكة تسلم عليه فاكتوى فانقطع تسليم الملائكة عليه ثم ترك الكي وصبر على الألم فعاد سلام الملائكة عليه.

كما جاء في حديث مسلم عن مفرّق قال لي عمران بن حصين أحدثك حديثاً عسى الله أن ينفعك به إن رسول الله ﷺ جمع بين حجة وعمره ثم لم يمه عنه حتى مات ولم ينزل فيه قرآن يحرمه وقد كان يُسلم عليّ حتى اكتبيت فتركت ثم تركت الكي فعاد أي السلام عليه من قبل الملائكة.

❦ فالتوكل على الله صفة عليّة من صفات عباد الرحمن وشعار يميزون به عن سواهم وعلامة بارزة لأهل الإيمان كما قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٠) .

لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه ولا يطلبون الحوائج إلا منه ولا يرغبون إلا إليه ويعلمون أنه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه المتصرف بالملك لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب كما قال ابن كثير رحمه الله، وقال سعيد بن جبير : التوكل على الله جماع الإيمان.

❁ وقد أمر الله بالتوكل وحث على ذلك في مواضع كثيرة كما في قوله تعالى ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (ال عمران: ١٢٢) في سبعة مواضع في القرآن الكريم :

١- ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ (النمل: ٧٩)

٢- ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (هود: ١٢٣) .

٣- ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بُذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٨) .

٤- ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (ال عمران: ١٥٩) .

فالتوكل سبب لنيل محبة الله وهي الصفة التي تميز بها المؤمنون عن غيره ولذلك أوجب الله التوكل.

٥- وإذا قيل ما حكم التوكل؟ فيقال واجب مثل أصل محبة الله والصبر والإنابة بل إن التوكل شرط الإيمان. والمفهوم من الآية ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢٣) أنه إذا انتفى التوكل انتفى الإيمان.

٦- أمر الله بالتوكل وقرنه بالإيمان ليدل بذلك على أنهما جزءان إذ التوكل على الوكيل هو الإيمان فأمر بالتوكل قولاً وعملاً بعد الإخبار عن محبته للمتوكل عليه ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْمَلُونَ مِمَّنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الملك: ٢٩) . واشترط للإيمان التوكل ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢٣)، وهذه جاءت في قصة موسى عليه السلام ﴿يَنْقُومُ إِن كُنْتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللَّهِ فَاعْلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٨٤) . إذ لا بد من هذا لهذا.

٧- وصار المتوكل على الله من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً، ونعتهم الله بالمقام الجليل العظيم. وضمن الله لمن توكل عليه القيام بأمره وكفايته أي أن يكفيه همه وأن ينصره ويحفظه فالله ناصر دينه وكتابه والله كاف عبده بأمان، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۚ﴾ (الطلاق: ٢) .

يقول ابن كثير رحمه الله: ومن يتق الله فيما أمره به وترك ما نهاه عنه يجعل له من أمره مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب أي من جهة لا تخطر بباله. وفي هذه الآية فضل التوكل وأنه من أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار فقد قال ﷺ : ((لو أنكم توكلتم على الله حق

توكله ليرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً)) (رواه الترمذي وصححه الألباني). فأفئدة الطير مليئة بالتوكل على الله ولو أننا توكلنا على الله كما يتوكل الطير لرزقنا مثل ما يرزق الطير، وقد وصف النبي ﷺ المتوكل على الله بوصفين:

أ- السعي في طلب الرزق.

ب- الاعتماد على مسبب الأسباب.

وهذا الحديث مهم في فهم قضية التوكل وفي الأخذ بالأسباب لأن الطير تغدو أي تذهب في الصباح وتبحث عن الرزق وتخرج من أعشاشها وهذا عمل وسعي وجهد وهو الطيران وترجع محملة بالطعام لنفسها ولأفراخها، إذاً فالسعي في طلب الرزق هو الاعتماد القوي على مسبب الأسباب المباحة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤٩) والعزیز هو الارتباط ما بين نهاية الآية والتوكل والعزیز الذي لا يذل من استجار به ولا يضيع من لاذ بجناحه حكيم يدبر من توكل عليه بحكمته تدبيراً حسناً.

قال ابن كثير - رحمه الله - : ومن يتوكل على الله أي يعتمد على جنابه فإن الله عزيز حكيم والتوكل مركب السائر الذي لا يتأتى السير إلا به ومتى نزل عنه انقطع فوراً وتوقف عن السير وهذا ما لاحظته ابن القيم رحمه الله وهذا يبين منزلة التوكل وفضل التوكل.

ومما يدل على فضله وعلو منزلته أن الله أمر به في أكمل الأحوال والعبادات والمقامات:

١- مقام العبادة ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (مؤد: ١٢٣) فأمر الله رسوله ﷺ والمؤمنين والخلق بالعبادة والتوكل. وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢-٣)، توكل على الله في جميع أحوالك وأمورك فهذا التوجيه لرسول الله ﷺ ليتوكل على الله ويتقيه ويعبده ويتبع ما يوحى إليه من ربه فهو أمر له ولأمته من بعده إلى يوم القيامة.

٢- في مقام الدعوة، فجاء الخطاب لرسول الله والأصل هو خطاب لأمته إلا إذا دل الدليل على تخصيص له فقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٩). فهو الذي تنتهي إليه القوة والملك والعظمة والجاه وهو حسب من لا ذبه ويكفي من استجار به ويدفع عنه الشر ويحميه، ونوح ﷺ أيضاً في مجال الدعوة: ﴿يَقَوْمُ إِن كَانَ كُبرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكُرِي بَغَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ (يونس: ٧١). فهذه الدعوة من نوح ﷺ والإنذار الطويل والتذكير المستمر الذي رافقه وقابله من قومه تكذيب وإعراض بعدما بلغ الضيق منه توكل على الله وفوض الأمر إليه وهو ماضٍ في الدعوة. إذاً الداعية إلى الله إذا جوبه بالإعراض من المدعوين والصدود والرد وعدم الاستجابة فإنه يتوكل على الله والله يكفيه شر هؤلاء المعرضين. ويوسع صدره الذي ضيقه بإعراضهم.

٣- في مقام الحكم والقضاء، قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٠). فالرسول ﷺ أمره كله إلى الله، أناب إلى ربه وتوكل عليه وفوض أمره لله، كيف يتحاكم الناس لغير الله إذا اختلفوا بشيء من الأمر، وهذا النبي الذي أرسله يترك ولا يتحاكم إليه وهو أولى أن يتحاكم إليه ليقول قول الفصل فيما اختلفوا فيه وكيف يتوجهون في أمر من الأمور إلى جهات أخرى والنبي موجود يقضي، فما دام القاضي والحاكم على الحق المبين فلا يبالي بما يعوقه وبمن يرد حكمه وبمن يرفض التحاكم إلى الشريعة التي يقتضي بها فإذا الحاكم والقاضي عليه التوكل على الله.

٤- في مقام المشورة: قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، فأخذ المشورة من باب الأخذ بالأسباب فأراء الناس أسباب تعين على الاهتداء إلى الصواب وأخذ القرار الصحيح، ولكن لا ينفك المؤمن في هذه الحالة حتى لو عندهم كبار المستشارين عن التوكل على الله. ولذلك بعض هؤلاء يغترون ويظنون أن وجود آراء المستشارين يغني عن التوكل وأنه عنده الخبراء الكبار وعنده المستشارون العظماء ونقول يمكن أن يضل هؤلاء كلهم ويأمرون بقرارات خاطئة، وقد يشيرون لأمر صائب ويخطئون في تنفيذه، إذا لابد من التوكل على الله حتى مع أخذ الآراء.

٥- في مقام طلب الرزق، قال تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الشورى: ٣٦) وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۖ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٢).

٦- في مقام العهود والمواثيق، وقد أخبر الله عن يعقوب عليه السلام في قصة يوسف وأخته: ﴿قَالَ لَن أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُتَوْتِنَا مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَن تُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (يوسف: ٦٦) والموثق هو العهود والأيمان المغلظة، ﴿وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (يوسف: ٦٧) ٠

٧- في مقام الهجرة في سبيل الله وهو عظيم وأليم على النفس أن يترك الإنسان مأواه وداره وأمواله ويتغرب ويضحي بعشيرته وبذكريات حبييته ولكن يهون عليه التوكل على الله، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوْتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جُرْأَلَاخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) (النحل: ٤١). ومن الذي يهون الهجرة والفرقة هو التوكل على الله . مهاجرة الحبشة الذين اشتد عليهم الأذى هاجروا هجرتين مشهورتين والنبي ﷺ وصاحبه أيضاً هاجروا وفي طريق الهجرة حصل ابتلاء وخوف ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا

فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَلْقَاهُ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (التوبة: ٤٠).

حقيقة التوكل :

❁ قال الزبيدي في تاج العروس: الثقة بما عند الله واليأس مما في أيدي الناس، فالتوكل على الله اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب، مع كامل اليقين أن تعلم أن الله هو الرازق الخالق المحيي المميت لا إله غيره ولا رب سواه.

والتوكل يتناول التوكل على الله ليعينه الله على فعل ما أمره والتوكل على الله ليعطيه ما لا يقدر عليه، وكلاهما كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، فالاستعانة تكون على الأعمال والتوكل أعم من ذلك فالتوكل مجلبة لمنفعة، ودفع لمضرة.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ (التوبة: ٥٩).

فإذا كن شاكرًا لله ولا تخش شيئاً إذا فوضت أمرك لله، كن رجاءاً لله متكللاً عليه ؛ حينها ينصرك الله.

❁ وإذا كان الله قد جعل لكل عمل جزاء من جنسه فقد جعل جزاء التوكل عليه الكفاية، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، ولو كاده كل من في الأرض جميعاً!!!

والثقة بالله ﷻ والتوكل عليه وتقويض الأمور يليه يريح العبد

نفسياً، لأنه الواحد مهما بذل أسباب ستبقى ثغرات يتحسب منها، ويبدل كذا وكذا لكن هذه لا يستطيع أن يفعل فيها شيء، ولو جاءوا ما استطعت.. ولو كادوا لي من هذه الجهة ما لي حيلة.. وضعنا احتياطات من هنا ومن هنا ولكن لو جاءوا من هنا لو فعلوا من هنا ما عندنا احتياطات...!!، فيصبح العبد مهموماً حتى مع اتخاذ بعض الأسباب.. هناك أشياء لا يقدر عليها فالتوكل يريحه نفسياً.. الأشياء التي لا حيلة له فيها ؛ الذي لا يتوكل قلق منها قلق جداً منها لأنه لم يعمل شيء في الموضوع، لكن من يتوكل على الله كفاه الله ما أهمه..

والتوكل على الله لا بد من تحقيق مراتب فيه.:

١- معرفة الرب وصفاته، من قدرته وكفايته وقيوميته، أنت تتوكل على الله وتعتمد عليه يجب أن تكون مؤمناً بقوة الله وقدرته وأنه يكفيك، فالذين يعطلون أسماء الله وصفاته ويلحدون فيها سيخلون بهذه المرتبة.

٢- إثبات الأسباب والمسببات وأنها لا تستقل بنفسها في التأثير، وإن جحد الأسباب وقال كل سبب معطل، هذا غبي مجنون..، هناك أسباب، تتكح ليأتيك الولد وتبذر ليخرج الزرع..، ولذلك جاء رجل للنبي ﷺ فقال أءعقلها وأتوكل أم أطلقها وأتوكل...؟، قال : اعقلها وتوكل..، وأحياناً لا يجد الواحد إلا الدعاء، ونعم السبب ..، والله ﷻ علم عباده الأخذ بالأسباب فقال: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَتَابِعِهَا ﴾ (الملك: ١٥) وقال: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ (الجمعة: ١٠) ..، فالذي يقول لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي جاهل بشرع الله وجاهل بقدر الله ..، الله قال في سورة المزمل

﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ (المـ: ٢٠) .. يضربون : يسافرون ويذهبون ويتاجرون، وكان أصحاب النبي ﷺ يتاجرون في البر والبحر.. ويعملون في نخيلهم وكان غسل الجمعة.. لماذا أمروا به...؟.. لأنهم كانوا عمال أنفسهم.. يعملون في الحر والنخيل.. العرق يرشح على ملابس الصوف فيكون لها رائحة كريهة في المسجد، ف قيل لهم (لو اغتسلتم) كما في البخاري، ولما سئل الإمام أحمد رحمه الله عن هؤلاء الذين يزعمون أنهم متوكلة ويقولون نقعد وأرزاقنا على الله ﷻ، قال الإمام أحمد : هذا قول رديء أليس الله قد قال ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ (الجمعة: ٩-١٠)؟..، وقال صالح بن أحمد بن حنبل: (سئل أبي عن قوم لا يعملون ويقولون نحن المتوكلون فقال : هؤلاء مبتدعون) ..

٣- ومن المقامات التي يجب تحقيقها رسوخ القدم في طريق التوحيد...، فالعبد إذا حقق التوحيد كان له من التوكل النصيب العظيم... ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ (التوبة: ١٢٩) توحيد وتوكل بعده..

٤- الاعتماد على الله ﷻ في كل الأمور، بحيث يفوض إليه سائر أموره..

٥- أن يحسن الظن بالله ﷻ وتفويض الأمور إلى الله ﷻ كلها ويكون بيد الله أوثق منه بما في يده، لا يضطرب قلبه ولا ييالي بإقبال الدنيا وأدبارها لأن اعتماده على الله ..، فحاله كحال إنسان

أعطاه ملك درهم فسرق منه، فقال الملك عندي أضعافه فلا تهتم.. متى جئت أعطيتك أضعافه من خزائني، فمن يعلم أن الله ملك الملوك خزائنه ملأى فلا يقلق إذا فات شيء فإن الغني يعطيه الله بدلاً منه.. وأما حسن الظن بالله ﷻ فإن الله ﷻ قال: (أنا عند ظن عبدي بي) كما جاء في الحديث القدسي، فحسن الظن يدعو إلى التوكل على الله، أنت تتوكل على من تظن أنه سينفعك، وإن الإنسان إذا علم وتيقن أن الله هو الغني القادر الحسب الكافي فيتوكل عليه..

٦- استسلام القلب لله ﷻ، فإذا استسلم كاستسلام العبد الذليل لسيده وانقياده له حصل التوكل ..

٧- التفويض .. ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفِوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ (اعمر:٤٤) أي أتوكل عليه واستعينه مع مقاطعتي ومباعدتي لكم خدعتموني .. قال ابن مسعود : (إن أشد آية في القرآن تفويضاً) ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (الطلاق: ٣) .

قال بعضهم: (المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله والرضى بعده"من وجهة نظر الدين والتوحيد"، فمن توكل على الله قبل الفعل ورضى بالمقضي بعد الفعل فهذا إنسان قائم بالعبودية فعلاً)..ولذلك انظر إلى دعاء الاستخارة: واقدر لي الخير حيث كان كله ثم رضني به..فالتوكل إذاً على الله تفويض قبل وقوع المقدور ورضى بعد وقوع المقدور..

فعرفنا إذاً أيها الأخوة الفرق بين التوكل والتوكل، فالتوكل فيه أخذ بالأسباب الشرعية، فبعض الطلاب قد يذهب لاختبار ويأخذ معه

أشياء للغش ويقول هذه أسباب(!!)، فهذا التوكل بمعصية، ولكن التوكل الصحيح أن يأخذ بالأسباب الشرعية المقدور عليها .

التوكل ترك الأسباب ..ومن ترك التوكل طعن في التوحيد..ومن ترك الأسباب نقص في العقل..

والأسباب ولو كانت يسيرة وضعيفة؛ يبذلها العبد..والله ﷻ يبارك فيها ويجعل فيها أثراً، والله علمنا ذلك في قصة مريم..

توكل على الرحمن في كل حاجة

ولا تؤثرن العجز يوماً على الطلب

ألم تر أن الله قال لمريم

إليك فهزي الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزها

جنته ولكن كل شيء له سبب

فتخيل حال امرأة.. ضعيفة .. في حال النفاس.. أضعف ما تكون المرأة.. والنخلة شجرة قوية .. جذعها قوي.. ولكن الله قال: ﴿ وَهَزَيْ إِلَيْكَ الْجَذْعَ ﴾ (مريم: ٢٥) ولكن بالسبب الضعيف جعل النتيجة...!..، كان من الممكن أن يسقط الثمر بلا هز.. وماذا يغني الهز من امرأة ضعيفة لشجرة قوية..، ولكن ليعلم العباد الأخذ بما أمكن من الأسباب.. هذا مبدأ مهم في قضية التوكل..

ﷺ والنبى ظاهر بين درعين ولبس لئمته ووضع الخوذة على رأسه (المغفر).. ما هذا؟؟.. أخذ بالأسباب، وطريق الهجرة وأخذ دليل وتعمية الأثر.. كل هذا أخذ بالأسباب.. وخرج في وقت يغفل فيه الناس.. من طريق غير متوقع.. وهونبي.. (حسبك الله) (والله يعصمك من الناس) ولكن الله علمنا التتبع.. الهجرة أخذ بالأسباب مع التوكل على الله..

والتوكل على الله ﷻ يجمع علم القلب وعمل القلب.. أن يعلم بأن الله مقدر الأشياء ومدبر الأشياء، وعمل القلب سكون القلب للخالق والاعتماد عليه والثقة به، فهذان أمران مهمان في التوكل يشمل التوكل علم القلب وعمل القلب..

- ١- أن يعلم بالأسماء والصفات..
- ٢- أن يسكن ويفوض ويستسلم لله ﷻ..

**إذا ابتليت فثق بالله وارض به
إن الذي يكشف البلوى هو الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته
ما لأمريء حيلة فيما قضى الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه
لا تيأسن فنعم القادر الله**

والتوكل على الله ﷻ يكون في تحصيل الحظ من الرزق والعافية وامتع الدنيا وجلب الحوائج ودفع المكروهات والمصائب الدنيوية..

كما يكون التوكل أيضاً في عبادته ﷻ والعبد إذا كان الله ﷻ غاية فإنه يسكن ويهدأ ولا يضطرب ويسأل ربه ويدعو، والتوكل على الله مع إسقاط الأسباب طعن في العقل والدين أيضاً لأننا قد أمرنا بالعمل، مثل هؤلاء الذين يظنون أنهم يريدون أن يدخلون الجنة بدون أعمال ويقولون ندخل برحمة الله...!!، كما قال أحدهم : جاهدت مع أهل زوجتي في إخراج المنكر من البيت ومن الوسائل والأجهزة المفسدة وأحاول فيهم، وأبو زوجتي يتدخل ويقول لماذا تفكر تخرج الأجهزة هذه ؟ كلنا في رحمة الله ...، نعم كلنا في رحمة الله ولكن أليس هناك أسباب لدخول الجنة ..؟ واجتتاب أسباب دخول النار ..؟ ما في ابتعاد عن المحرمات...؟!

قيام بالواجبات...؟! كذا برحمة الله بدون اتخاذ أسباب...؟! ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٦) يا أخي.. ليست قريب من الفاجرين الفاسقين...!!

فمشكلة أن يوجد مثل هؤلاء الذين لا يريدون لا بذل أسباب دنيوية ولا شرعية، وبعضهم يبذل أسباب دنيوية ولا يبذل أسباب شرعية، في الدنيا والدراسة والتحصيل والفن والأجهزة ممتاز، وفي الصلاة تقصير والمحرمات يقع فيها، فيأخذون بالأسباب في الدنيا ويتركون أسباب الدين..كيف تتجو في الآخرة بدون أن تأخذ أسباب الجنة...؟!! (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) ..

الأمور التي تضاد التوكل

١- التطير والتشاؤم .. قال ﷺ (لا طيرة) .. التطير والتشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع، كمن يرى أعور فيتشائم به، ويرى طيراً ذهب شمالاً فيتشائم به، يريد أن يذهب لسفر أو زواج فيلغي المشروع .. هذا ينافي التوكل على الله .. قال مثلاً كرسي الحجز في الطائرة ١٣ .. هذا ما أركب فيه .. هذا شؤم .. تجنب الرقم ١٣ ليس من الأسباب المشروعة إطلاقاً، ذهب يضرب صفقة مع رفيقه فرأى حماته، فقال هذا نذير شؤم .. ما دخلها ..!!؟، فالتطير والتشاؤم منافي للتوحيد .

ولما جاء أحد المنجمين لعلي عليه السلام وهو خارج لقتال البغاة، قال هنا الآن نوء العقرب إذا خرجت يا علي ستخسر في المعركة وتتهزم فخرج علي ثقة بالله وتوكلاً عليه وكتب الله له في تلك الغزوة والخروج البركة والخير والفلاح والانتصار، ولذلك المرء يعتمد مخالفة العرافين والكهنة .. فإذا قال له كاهن خروجك هذا شر والنجم كذا فليقل بل مخالفة لك وإيماناً بالتوحيد وإيماناً بالسنة سأخرج وأخالفك يا أيها الدجال والمشعوذ .. وإتيان الكهان والتعلق بهم .. تعليق التمايم يخالف التوكل .. لأن الإنسان (من تعلق شيئاً وكل إليه) ..

لذلك الإنسان لو علق أشياء ولو بالقرآن يتعلق قلبه بالجلد هذا والورق والحبر المكتوب مع أن المفترض أن يتعلق قلبه بالله وليس بأوراق وجلود يجعلها على معصمه أو يعلقها في رقبتة، وبعضهم يقول هذه أسباب ..!!!!!!، هذا خلافتنا مع بعض الناس .. أمرنا باتخاذ أسباب شرعية .. أو أي أسباب ..!!!!!!، التوكل لا بد أن يكون معه أسباب شرعية

... فالذي يلبس حلقة أو خيط أو يتبرك بالأشجار ويكتب التعاويذ ويعلقها هذه أسباب غير مشروعة فكيف تتخذها..!!؟ (من تعلق شيئاً وكل إليه) وحرّم من التوكل على الله وصار توكله على هذا الشيء الموضوع، لذلك ترى الناس الذين توحيدهم ضعيف يكثر من هذه الأشياء.. يعلق في السيارة والبيت وعلى رقبتة وأولاده ومنها أشياء شركية وكذا .. لأنه يريد أي أسباب.. ماعنده توحيد وتوكل قوي فهو خائف ويريد أي سبب فيفعل أي شيء ولو كان غير مشروع، لذلك ينقلب على عقبيه ويرتد على دبره ولا يحصل له ما يريد ويبقى في خوف وهم..

٢- ولابد في التوكل على الله من السعي في طلب الرزق، وهذا مهم جداً في عصر شاعت فيه البطالة، بعض الناس يتوكلون على بعض، والابن على أبيه والأخ على أخته الموظفة، وكثير منهم لا يريدون العمل، والله أرشدنا وفتح أبواب لطلب الرزق وأشياء مذكورة في الكتاب والسنة..

أ- فأول وأعظم سبب للرزق وأحلّ الحلال في الأرض هو غنائم القتال ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ (الأنفال: ٦٩) فالعلماء تناقشوا في قضية ماهو أطيب الرزق وأحلّ الحلال تجارة زراعة وصناعة.. قالوا : إن أحلّ الحلال على وجه الأرض غنائم المعارك في سبيل الله لأن الله قال ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ (الأنفال: ٦٩) والرسول ﷺ قال: (جعل رزقي تحت ظل رمحي)..

ب- العمل باليد فالرسول ﷺ قال: (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من عمل يده) وقال : (لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه)..

ج- التجارة وهي عمل كثير من المهاجرين وكذلك الأنصار ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الجمعة: ١٠)، وعبد الرحمن بن عوف قال: (دلوني على السوق)، كان الصحابة يغدون إلى السوق ويشترون ويبيعون.

د- الحرث والغرس والزرع، وقال أن الزراعة فيها ميزة في التوكل على الله أكثر من غيرها فالمزارع إذا بذر عنده في قلبه توكل على الله أكثر من التاجر، كلهم يحتاجون التوكل لكن الزارع أكثر، فبعضهم قدم الزراعة من هذه الجهة لما فيها من مزيد تعلق القلب من الله في رجاء حصول النماء والنبات لهذا المحصول وبأن الثمرة تظهر ولا يصيبها آفة وهكذا ..

ثم إن الإنسان يبذل الأسباب في العلاج، غير طلب أسباب الرزق، فمثلاً قال النبي ﷺ : (ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له شفاء) (تداووا عباد الله) والتداوي ما هو إلا أخذ بالأسباب في هذا المجال ..

فوائد التوكل

١- بسببه النصر على الأعداء ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ﴿٣٧﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ ﴿٣٨﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٣٩﴾ (الأحزاب: ٢٢)

٢- يجلب المصالح ويدفع المضار والمصائب ويجلب الرزق ويعجل الشفاء ..

٣- التوكل على الله سبب لقوة القلب ونشاطه..

٤- وقاية من الانهيارات النفسية والعصبية..

٥- يباعد بين الإنسان والانتحار وما يفعله هؤلاء الذين عدموا التوكل فيئسوا وأصيبوا بالإحباط فلم يبق لهم في الدنيا مكان في نظرهم..

٦- سبب للحفظ في النفس والمال والولد والأهل ﴿ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝٦٦ ﴾ (يوسف: ٦٦)، يعقوب قالها لبنيه..! ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧ ﴾ (يوسف: ٦٧) وقال: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝٦٨ ﴾ (المجادلة: ١٠٠) .. وعندما يخرج الإنسان من بيته يقول: (بسم الله توكلت على الله) فماذا يحدث له؟! يقول له ملك: (هُدِيت، وَقِيت، كُفِيت من كل شر) ..

٧- التوكل على الله يبعث في القلب الحماس والعزيمة للعمل لأنه فيه فتح لباب الأخذ في الأسباب والأسباب المشروعة، لما يفهم المرء التوكل فهماً صحيحاً ينطلق للعمل ويأخذ بالأسباب، وهذا فيه إنتاجية وفيه ثمار تحدث..

٨- والتوكل على الله يرفع الروح المعنوية حتى لو أصاب الإنسان مصائب وشدائد، ففي الجراحات والقتل الذي أصابهم مصيبة فوقها يأتي خبر أن المشركين جمعوا عليكم ليعيدوا الكرة عليكم ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝١٧٣ ﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضِّلَ لَمْ يَمَسَّ سُوَّاءٌ ﴿ (آل عمران: ١٧٣-١٧٤) ..

٩- التوكل على الله يجلب الرزق كما يرزق الطير وقد تقدم الكلام في هذا..

١٠- التوكل على الله يحقق النتيجة فالطالب يريد النجاح والتاجر يريد الربح وطالب الوظيفة يريد التعيين في العمل وهكذا..

١١- من توكل على الله يشعر بمعية ربه له أنه معه ناصره مغنيه كافييه واقيه..

١٢- التوكل على الله يجلب محبة الرب للعبد، وكذلك العبد يحب الرب نتيجة التوكل، لأنه يرى آثار توكله على ربه وكيف أن الله يعطيه على نيته وتوكله عليه فيحب ربه..

١٣- التوكل من حققه دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب وهذا أعظم ثمرات التوكل كما جاء في حديث السبعين ألف..

١٤- التوكل على الله عز وغنى ..

قصص مع المتوكلين وعلى رأسهم الرسول ﷺ

لما نزل مع أصحابه في واد فعلق سيفه في شجرة ففترق الناس في الوادي يستظلون في الشجر فلم يرعهم إلا والنبي ﷺ يدعوهم فاتوه فإذا بشخص وسيف ساقط فقال الرسول إن رجلاً أتاني وأنا نائم فاتخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي فلم أشعر إلا والسيف صلفاً أي مسلولاً.. انتبه النبي والسيف فوق رأسه.. أين المهرب..؟!.. فقال من يمنعك مني ..؟!.. قلت: الله.. هذه كلمة فيها التوكل والتفويض

والاستعانة وكل شيء.. قال: فشام السيف أي أغمدته.. وفي رواية سقط السيف من يده..، هاهو ذا جالس.. كما في صحيح مسلم..

النبي ﷺ مع أبي بكر في الغار، أبو بكر خائف على النبي أكثر من خوفه على نفسه يقول : (يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى ما بين قدميه لأبصرنا) ما بيننا وبين الهلاك إلا نظرة تحت!!.. قال يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما..!!؟، هذا هو التوكل والتفويض يظهر فعلاً في أوقات الأزمات جلياً واضحاً.. أن هذا العبد قلبه مفتقر إلى الرب متوكل عليه مفوض أمره إليه خصوصاً إذا لم يكن هناك أسباب تتخذ إلا تفويض الأمر إلى الله..

وجاء الإنكار من ابن عباس ؓ على بعض أهل اليمن الذين يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس مدوا أيديهم.. فأنزل الله ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ (البقرة: ١٩٧) ..

وهناك قصة لطيفة لامرأة رواها الإمام أحمد رحمه الله تعالى يقول في الحديث عن النبي ﷺ : (إن امرأة خرجت في سرية من المسلمين وتركت ثنتي عشرة عنزاً لها وصيصيتها "السيخ الذي ينسجون به الغزل" كانت تنسج بها، ففقدت عنزاً من غنمها وصيصيتها فقالت ياربني إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه وإني قد فقدت عنزاً وصيصيتي وإني أنشدك عنزي وصيصيتي، فجعل رسول الله يذكر شدة مناشدتها لربها ﷺ وشدة توكلها على الله وخرجت في سبيل الله ومعتمدة أن الله يحفظ مالها ولما عادت لم تقول أن الله أخلف وعده ولكن نشدت ربها ما وعد به وأخذت تح وتلح.. قال ﷺ : (فأصبحت عنزها ومثلها وصيصيتها ومثلها).. رجع مضاعفاً!!.. نامت على الدعاء والتوكل ووجدته مضاعفاً من عند الله!!..

❦ وقال الإمام أحمد في مسنده حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا عبد الحميد بن وهبان قال أبو هريرة : (بينما رجل وامرأة له في السلف الخالي لا يقدران على شيء فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته مسبغة شديدة فقال لامرأته أعندي شيء؟.. لكن رافة بحال الزوج أرفع المعنويات وتسليته وما عندها شيء فلم تشأ أن تقول لزوجها راجع جائع جداً (لا).. فالمرأة اشفاقاً على زوجها وثقة بالله قالت (نعم ابشر أذاك رزق الله) مع أنها ليس لديها شيء لكنها الثقة والاعتماد على الله ورجاء الله، فاستحثتها فقال ويحك ابتغي إن كان عندك شيء...!!..!!..!! قالت: نعم هنيئة.. اصبر.. نرجوا رحمة الله..! حتى إذا طال عليه الطوى وجاع زيادة فوق جوعه فقال (ويحك إن كان لديك خبز فأتييني به فإني قد بلغت وجهت فقلت نعم الآن ينضج التنور) أوقدت الفرن والفرن ليس فيه شيء فلا تعجل فلما أن سكنت عنها ساعة، وتحينت أن يقول لها قالت هي من نفسها لوقمت فنظرت إلى تتوري مع الثقة بما عند الله.. فقامت فوجدت تنورها ملآن جنوب الغنم.. ورحيها تتطحان...!!..!!..!! فقامت إلى الرحي فنفضتها وأخرجت مافي تنورها من جيوب الغنم...!!..!! قال أبو هريرة فوالذي نفس أبي القاسم بيده عن قول محمد صلى الله عليه وسلم (لو أخذت مافي رحيها ولم تنفضها لطحنتها إلى يوم القيامة)!!..!!

قد يقول بعض الناس ماذا نقول في قصة خالد بن الوليد لما شرب السم، أو ما جاء عن عمر أنه أكل مع مجذوم..

قصة خالد مشهورة في كتب التاريخ، أنهم حاصروا حصناً فقال

الروم لا نسلّم (نستسلم) حتى تشرب السمّ..، وحكم شربه حرام لا يجوز (من تحسّى سمّاً فقتل نفسه فسمّ تحسّاه في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً)، خالد في وقت حرج، استسلام هؤلاء يعني حماية المسلمين وإبعاد الأذى عنهم في الحرب والجرافات فيه مصلحة عظيمة، والروم هؤلاء كأنهم يريدون شيء من الكرامات يستسلمون لهؤلاء - تحديّ- فأخذه خالد ثقة بالله وتوكلاً على الله وشرب ولم يضره وسلم الروم..

هذه حالة خاصة ونادرة لم يكن أخذه لها بسبب الانتحار وإنما وجد خالد مصلحة عظيمة للمسلمين ووجد في نفسه توكل على الله كبير وهذا شيء يشعر به ربما بعض أولياء الله في بعض الحالات..، لم يضره من التوكل..، ولكن هذا لا يقع مع أي أحد..

وكذلك تحمل قصة عمر رضي الله عنه لمن أراد الإثبات والبرهنة لمن يعتقد أن العدو لا بد أن تصيب فوجد في نفسه شدة وصحة توكل وقوة في القلب لإثبات للناس أنه لا عدوى، ولكن هذه حالات خاصة تكون مع أولياء الله وليست القضية على إطلاقها فالأصل باقٍ على ما هو عليه..

ثالثاً: الرجاء:

المقام دليل على الثبات والدوام لأنه لو كان شيئاً سريع الزوال لسمي حالاً وليس مقاماً، فينبغي لأعمال القلوب أن تكون مقامات وليست أموراً عارضة..

(مثال على ذلك: صفرة ثابتة ← الذهب، صفرة المرض ← بينهما، صفرة الخوف والوجل ← سريعة الزوال)..

الرجاء: هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عند الإنسان، لكن هذا شيء متوقع له سبب فإن لم يوجد له سبب صار تمنياً لأن من إذا انتظر شيء بدون سبب لا يسمي راجياً بل متمنياً..!

وأما ماله سبب وينتظر الإنسان محبوباً بسبب عمله هذا راجاء. ولابد من التفريق بين الرجاء والتمني..

الرجاء	التمني
حاله كحال رجل شق الأرض وسواها وبزرها وحرثها وتعهدها بالسقيا والماء وأبعد عنها الآفات وقعد ينتظر حصول الثمرة ونماء الزرع فهذا صاحب رجاء. فهو يرجو رحمة الله وثوابه بعد بذل الأسباب..	ليس رجاء شرعياً.. يكون مع الكسل..، فلا يسلك صاحبه طريق الجد والاجتهاد ولا يبذل جهداً ولا توكلأ فهذا حال من يتمنى أن ينبت زرع بدون أن يبذل، وصاحبه مفلس..

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ (النساء: ١٢٣) ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه من الحسن.

والرجاء ضروري للسانر إلى الله والعابد لو فارقه لحظة تلف أو ضاد يتلف لأن المسلم يدور ما بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها وثباتها، وقرب من الله يرجو الوصول إليه، لذلك كان الرجاء من أقوى

الأسباب التي تعين المرء على السير إلى ربه والثبات على الدين، وهذا زمن الفتن والشهوات والمحن والشبهات.

أسباب وعوامل الثبات :

الرجاء الذي هو ضد اليأس، واليأس هو تذكر فوات رحمة الله وقطع القلب عن التماسها وهو معصية ﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧) قالها يعقوب عليه السلام لأبنائه ..

درجات الوصول إلى تحقيق الرجاء :

- ١- ذكر سوابق فضل الله على العبد، أن الله له علينا فضائل سابقة
- ٢- ذكر وعد الله من جزيل ثوابه وعظيم كرمه وجوده بدون سؤال من العبد استحقاق فإن الله يعطي بدون أن يكون العبد مستحقاً إذا استقام الإنسان.
- ٣- أن تذكر نعم الله عليك في أمر دينك وبدنك ودنياك في الحال (الآن) وأن يمدك بالألطاف والنعم من غير استحقاق ولا سؤال.
- ٤- ذكر سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه وأنه الرحمن الرحيم الغني الكريم الرؤوف بعباده المؤمنين لذلك تحقيق الرجاء يقوم على معرفة أسماء الله وصفاته.

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض لا بد لها من بذر وكذلك لا بد للقلب من طاعات والأرض لا بد لها من تعاهد وسقي بالماء وحفر أنهار وسوق الماء إليها وكذلك القلب لا بد له

من تعاهد وأن يسقى بماء الطاعة والعبادة وكذلك الأرض تحتاج حتى تثبت إلى صيانتها عن الأشياء الضارة، وترى المزارع ينتقي الدغل فينتزعه من أرض حتى لا يؤذي زرعه والمؤمن ينقي قلبه من أي شبهة وشهوة حتى لا تفسد عليه زروع الطاعة التي سقاها بماء العبودية..

وقلّ أن ينفع إيمان مع خبث القلب كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة إذا ينبغي أن يقاس رجاء العبد برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى بذراً جيداً وسقى وتعاهدا بالرعاية ثم جلس ينتظر فضل الله ..، انتظار هذا يسمى رجاءً، أما إن بذر في أرض سبخة مرتفعة لا يصلها الماء، هذا غبي أحمق، أما إن بذر في أرض طيبة ولكن لا يصلها الماء وقال أنتظر المطر ..، انتظار هذا تمنّي وليس رجاء..!

الرجاء يصدق على انتظار محبوب تمهّدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس في اختيار وإرادة العبد..

لذلك فالإنسان يبذل من الطاعات والعبادات وينتظر فضل الله أن يثبته وأن لا يزله ولا يزيغه حتى الممات ولا يضلّه حتى يلقاه وهو راضٍ عنه.

الراجي إنسان عنده مواظبة على الطاعات قائم بمقتضيات الإيمان، يرجو من الله أن لا يزيغه وأن يقبل عمله ولا يردّ عليه، وأن يضاعف أجره ويثيبه، فهو باذل للأسباب التي يستطيعها يرجو رحمة ربه، ولذلك يكون الذي يقطع البذور ولا يتعاهدا بماء الطاعات أو يترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق منهمكاً في لذات الدنيا ثم يطلب

المغفرة يكون حمقاً وغروراً ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ (الأعراف: ١٦٩)، والكافر صاحب الجنة قال ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِمَّنَّا مُنْقَلَبًا ﴾ (الكهف: ٣٦)، فهو صاحب أمني ولا أعمال صالحة عنده ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ (الكهف: ٣٦)!!

الرجاء دواء يحتاج له رجلان:

١- رجل غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة وجزم أنه ليس هناك فائدة..

٢- رجل غلب عليه الخوف حتى أضرّ بنفسه وأهله، فتعدّى خوفه الحد الشرعي المطلوب فلا بدّ أن يعدّل ويمدّ بشيء يحدث موازنة وهو الرجاء الذي هو حالة طبيعية عند المؤمن.

فبعض الناس الكلام معه في الرجاء دواء، أما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة لا ينفع معه أبداً دواء الرجاء، ولو استعملت معه الرجاء لزدته ضلالاً..، لا ينفع له إلا دواء الخوف، فيوعظ بسيّاط الخوف ويقرّع المنايا، هذا المتمني المتساهل المفرط، فلا يصلح معه أن تحدثه عن الرجاء، وهذا أمر مهم ينبغي أن ينتبه له الوعاظ..

قال بعض العلماء: (يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً معهم ناظراً إلى مواضع العلل معالجا كل علة بما يليق بها وهذا الزمان لا ينبغي أن يستخدم فيه مع الخلق أسباب الرجاء بل المبالغة في التخويف وإنما يذكر الواعظ فضيلة وأسباب الرجاء إذا كان المقصود استمالة

القلوب إليه لإصلاح المرضى)، التخويف ولكن بحيث لا تصل إلى تئيسهم من رحمة الله..

قال علي ؓ: ((إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ولا يأمّتهم مكر الله))..

لأبد أن يكون هناك توازن وحسب حال الناس، فإذا كانوا ميّالين إلى التفريط والمعاصي والتساهل غلب التهويل وإذا كان عندهم خوف زائد ويأس من رحمة الله غلب الرجاء.

ثمرات الرجاء:

- ١- يورث طريق المجاهدة بالأعمال.
- ٢- يورث المواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال.
- ٣- يشعر العبد بالتلذذ والمداومة على الإقبال على الله والتتعم بمناجاته والتلطف في سؤاله والإلحاح عليه.
- ٤- أن تظهر العبودية من قبل العبد والفاقة والحاجة للرب وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.
- ٥- أن الله يحب من عباده أن يسألوه ويرجوه ويلجأوا إليه لأنه جواد كريم أجود من سئل وأوسع من أعطي وأحب ما إلى الجواد الكريم أن يسأله الناس ليعطيهم ومن لا يسأل الله يغضب عليه والسائل عادة يكون راجٍ مطالب أن يُعطى فمن لم يرجو الله يغضب عليه، فمن ثمرات الرجاء التخلّص من غضب الرب.

٦- الرجاء حادٍ يحدو بالعبد في سيره إلى الله فيطيب المسير ويحث على السير ويبعثه على الملازمة، فلو لا الرجاء بـ (المضاعفة- رحمة الله- الأجور والثواب المضاعف- الجنة والنعيم) ما سار أحد، والقلب يحركه الحب ويزعجه الخوف ويحدوه الرجاء.

٧- يطرح على عتبة محبة الله ﷻ ويلقيه في دهليزها فكلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه؛ ازداد حباً لربه وشكراً له ورضاء، وهذا من مقتضيات وأركان العبودية.

٨- الرجاء يبعث العبد على مقام الشكر لأنه يحفزه للوصول إلى مقام الشكر للنعم وهو خلاصة العبودية.

٩- الرجاء يوجب المزيد من التعرف على أسماء الله وصفاته .

الخوف مستلزم للرجاء والرجاء مستلزم للخوف عند المؤمن، لأن كل خائف راجي وكل راجي خائف، ولهذا حسن وقوع الرجاء في مواضع يحسن فيه وقوع الخوف ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ (نوح: ١٣) . قال المفسرين: مالكم لا تخافون الله عظمة، فكل راجٍ خائف من فوات مرجوّه، هذا يفسّر لنا كيف أن الرجاء مرتبط بالخوف وأن الراجي خائف أن يفوت مطلوبه ورحمة الله وجنته.

انظر إلى التداخل العجيب بين مقامات الإيمان في قلب المؤمن، والخوف بلا رجاء يأس وقنوط...!!!

قال تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ

اللَّهُ ﴿ (الجنّة: ١٤) أي لا يخافون وقائع الله بهم كما وقعت في الأمم الذين من قبلهم من التدمير والإهلاك.

١٠- ثم إن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رجاه فحصل المطلوب يحصل مزيد من التشجّع وسؤال المزيد والإقبال على الله وهكذا لا يزال العبد في ازدياد في الإيمان والقرب من الرحمن.

١١- على قدر رجاء العباد وخوفهم يكون فرحهم يوم القيامة بحصول المرجو الأعظم وهو نيل رضا الرب والجنة ورؤية الله فيها .

وكذلك فإن الله يريد من العبد أن يكمل نفسه بمراتب العبودية من الذل والانكسار لله والتوكل عليه والاستعانة به والخوف منه والصبر على أقداره والشكر له وعلى إنعامه ولذلك يقدر الذنب على العبد لتكمل مراتب العبودية عند العبد فيستغفر العبد، فلولا الذنب ما حصل انكسار ولا توبة، يبتليهم بالذنوب ليعالج ما في قلوبهم بالانكسار وطلب التوبة فينكسر بين يدي الله فيتحقق معنى مهم جداً جداً من معاني العبودية...!!

كيف تتحقق العبودية إذا لم يكن هناك انكسار وذل وخضوع...؟!، أحياناً لا يصدر الانكسار والذل هذا إلا بذنب يتوب منه العبد ويعرف تقصيره والبلية التي وقع فيها وحجم المعصية.

الرجاء فيه تنتظر وترقب وتوقع لفضل الله ﷻ فيتعلق القلب أكثر بخالقه.

أنواع الرجاء:

الرجاء ثلاث أنواع، نوعان محمودان ونوع غرور مذموم..

١- رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فماذا يرجو؟ ثواب الله..

٢- رجل أذنب ذنباً ثم تاب منها فماذا يرجو؟ يرجو مغفرة الله ومحو الذنوب والتجاوز عنها وسترها..

٣- رجل متمادي في التفريط والمعاصي والسيئات ويرجو رحمة ربه والمغفرة بلا عمل!! فهذا غرور وتمني ورجاء كاذب لا يعتبر رجاء محموداً أبداً..

والمؤمن عندما يسير إلى الله له نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله من العجب والرياء والاغترار بالعمل وهذا يفتح عليه باب الخوف من الله، وينقله بعد ذلك إلى سعة كرم الله وفضله وبره ومغفرة ذنوبه ويفتح له باب الرجاء، وهذا هو النظر الثاني ولهذا قيل في حد الرجاء وتعريفه هو النظر إلى سعة رحمة الله ﷻ ولا بد من الموازنة بين الخوف والرجاء كما قال العلماء: ((العبد في سيره إلى الله كالطائر يطير بجناحين، جناحي الطائر إذا استويا استوى الطائر وتم طيرانه وإذا نقص أحدهما اختل نوعاً ما وإذا ذهب الجناحان صار الطائر في حد الموت))، ما هما الجناحان في سير العبد إلى ربه؟ هما الخوف والرجاء.

درجات الرجاء:

الرجاء درجات، درجة أرفع من درجة، ومراتب بعضها فوق بعض :

١- الدرجة الأولى:

رجاء يبعث العامل على الاجتهاد بالعبادة بل يولد عنده اللذة بالعبادة ولو كانت شاقة أو صعبة فيتلذذ بها ويترك المناهي، ومن عرف القدر المطلوب هان عليه ما يبذل فيه ومن رجا الأرباح العظيمة في سفره هانت عليه مشقة السفر، كذلك المحب الصادق الذي يسعى في مرضاة الرب تهون عليه مشقة صلاة الفجر والوضوء في البرد ومشقة الجهاد ومشقة الحج والعمرة وطلب العلم وتكرار الحفظ وانتصاب الجسم في الليل وجوع الصيام...، بل تنقلب إلى لذة...!!

فالدرجات العملية في التعبد لله: مشقة ومن ثم لذة، يقول أحد العلماء: " كابدت قيام الليل ٢٠ سنة ثم تنعمت به ٢٠ سنة"، فالمرء لا يصل أحياناً إلى لذة العبادة إلا بعد أن يزوق مشقتها، فإذا قوي تعلق الرجاء بالعوض سمحت الطباع بترك العادات وترك الراحة، فالإنسان مفطور أن لا يترك محبوباً إلا لمحبوب أعظم منه .

٢- الدرجة الثانية:

المجاهدون لأنفسهم بترك مألوفاتها واستبدال مألوفات هي خير منها فرجاؤهم أن يبلغوا مقصودهم بالهمة وهذا يلزم له العلم وهو الوقوع على الأحكام الدينية لأن رجاءهم متعلق بحصول ذلك لهم ولا بد من علم وبذل

الجهد بالمعرفة والتعلم وأخذ النفس بالوقوف عند الحدود طلباً وقصداً..

٣- الدرجة الثالثة :

رجاء أرباب القلوب لقاء الخالق والاشتياق إليه ﷻ وهذا الذي يمكن أن يزهد الإنسان في الدنيا تماماً (أعلى الأنواع)، ((فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً))، ((من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت))، هذا الرجاء (اللقيا) محض الإيمان وزبدته وإليه تشخص أبصار العابدين المجتهدين وهو الذي يسليهم ولذلك ضرب الله لهم أجل تسكن إليه نفوسهم..

عمير بن حمام الأنصاري لما ذكر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض) اشتاقت نفسه إلى لقيا الله فقال: (لئن عشت حتى آكل هذه التميرات إنها لحياة طويلة) فقاتل حتى قُتل ولقي الله شهيداً ..

فلما علم الله شوق هذه الطائفة من عباده وهم الندرة والقلة وأن نفوسهم تضطرب حتى تلقها؛ ضرب لهم موعداً تسكن إليه نفوسهم وتعمل حتى تقدم إلى الله.

سئل أحد العارفين عن قول علي عليه السلام: (لا يرجون عبداً إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه) فقال: الحمد لله، هذا الكلام يؤثر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهو من أحسن الكلام وأبلغه وأتمه فإن الرجاء يكون للخير والخوف يكون من الشر والعبد إنما يصيبه الشر بذنوبه ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠) لذلك قال

علي ﷺ: (لا يخافن عبد إلا ذنبه) وإن سلط عليه مخلوق فما سلط عليه إلا بذنبه ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٩) فليخف الله وليتنب من ذنبه التي ناله بها ما ناله كما في الأثر: (يقول الله: أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي من أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تستغلوا بسبب الملوك وأطيعوني أعطف قلوبهم عليكم)، فإن الراجي يطلب حصول الخير ودفع الشر ولا يأتي بالحسنات إلا الله ولا يذهب السيئات إلا الله ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ (يونس: ١٠٧)، ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر: ٢)

والرجاء مقرون بالتوكل، فإن المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المنفعة ودفع المضرة، والتوكل لا يجوز إلا على الله ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (إبراهيم: ١٢) ومن توكل على غير الله ورجاه خذل من جهته وحرم إن لم يكن في الدنيا؛ في الآخرة حين يقال: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤنهم فاطلبوا منهم الأجر...! ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤١)، ﴿وَأَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا هُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (مريم: ٨٠-٨١)، فمن عمل لغير الله رجاه أن ينتفع بما عمل له كانت صفاقته خاسرة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفَتْهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (التور: ٣٩) .

رابعاً: الخوف

قد ورد الخوف في القرآن على وجوه منها..

١- القتل والهزيمة: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ أَلْحَافٍ﴾
(النساء: ٨٣)، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ (البقرة: ١٥٥) .

٢- الحرب والقتال: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِالسِّنَةِ حِدَادٍ﴾ (الأحزاب: ١٩) إذا انجلت الحرب، ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (الأحزاب: ١٩)

٣- العلم والدراية: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوَصِّ جَنَفًا﴾ (البقرة: ١٨٢) أي علم، ﴿شَيْعًا إِلَّا أَن يَخَافَ إِلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٢٩) أي يعلمنا ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ إِلَّا تَقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ (النساء: ٣) أي علمتم.

٤- النقص: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ (النحل: ٤٧) .

٥- الرعب والخشية من العذاب والعقوبة: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ (السجدة: ١٦) .

قال ابن قدامة: ((اعلم بأن الخوف سوط الله يسوق الله به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله ﷻ، والخوف سراج القلوب به يبصر ما فيه من الخير والشر))..

وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله ﷻ فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه فأين المفر؟!، وما فارق الخوف قلباً إلا خربه فإذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات فيها وطرده الدنيا عنها .

فكم أطلق الخوف من سجين في لذته كانت قد استحكمت عليه
سكرته وكم فك من أسير للهوى ضاعت فيه همته وكم أيقظ من غافل
التحف بلحاف شهوته وكم عاق لوالديه رده الخوف عن معصيته، وكم
من فاجر في لهوه قد أيقظه الخوف من رقدته، وكم من عابد لله قد بكى
من خشيته وكم من منيب إلى الله قطع الخوف مهجته وكم من مسافر
إلى الله رافقه الخوف في رحلته وكم من محب لله ارتوت الأرض من
دمعته، فله ما أعظم الخوف لمن عرف عظيم منزلته..

والخوف ليس مقصوداً لذاته، ليس المقصود أن نخاف لأجل أن
نخاف بل نخاف ليكون الخوف وسيلة تصلح أحوالنا.

لو كان الخوف مقصوداً لذاته لما ذهب عن أهل الجنة!!، لكن لما
كان دخول أهل الجنة الجنة مهياً للقضية وما هو مطلوب منهم وليس فيها
عمل ولا اجتهد في العبادات ومقاومة للهوى والشهوات كان الخوف من
أهلها ذاهب ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: ٦٢) .

ومن خاف اليوم أمن غداً.. ومن أمن اليوم خاف غداً.

والخوف يتعلق بالأفعال، والمحبة تتعلق بالذات والصفات، ولهذا
تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم ولا يلحقهم فيها خوف.

قال ابن رجب : ((والله خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه ويخشوه
ونصب الأدلة الدالة على عظمتهم وكبريائهم ليهابوه ويخافوه خوف
الإجلال ووصف لهم شدة عذابه ودار عقابه التي أعدها لمن عصاه
ليبتقوه بصلاح الأعمال)) .

لذلك كرر الله ﷻ ذكر النار وما أعده الله فيها لأعدائه من العذاب والنكال وما احتوت عليه من الزقوم والضريع والحميم والسلاسل والأغلال إلى غير ذلك مما فيه من العظائم والأهوال ودعا عباده بذلك إلى خشيته وتقواه وامثال والمسارة إلى ما يأمر به ويحبه ويرضاه واجتناب ما ينهى عنه ويكرهه ويأباه، فمن تأمل الكتاب الكريم وأدار فكره فيه وجد ذلك العجب العجاب وكذلك السنة الصحيحة المفسرة للقرآن وكذلك سير السلف الصالح أهل العلم والإيمان من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، من تأملها علم أحوال القوم وما كانوا عليه من الخوف والخشية والإخبات وأن ذلك هو الذي رقاهم إلى تلك الأحوال الشريفة والمقامات الساميات من شدة الاجتهاد في الطاعة والكف عن المحرمات ودقائق الأعمال المكروهات فضلاً عن المحرمات..

الخوف منازل ودرجات :

القدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم فإن زاد على ذلك، بحيث صار باعثاً للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والكف عن دقائق الكروهاات (يعني فعل المستحبات وترك المكروه والشبهة)، كان ذلك خوفاً محموداً فإن تزايد الخوف بحيث أدى إلى مرض أو موت أو همٌّ لازم أو قعود عن العمل بحيث يقطع السعي عن اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة إلى الله ﷻ لم يكن خوفاً محموداً.

بعض الناس من شدة خوفهم من العذاب والنار يصابون باليأس والاحباط والقعود عن العمل ويقولون لا فائدة!!...، ليس هذا هو المطلوب ..، وهذه الزيادة مذمومة..

الخوف المطلوب: الذي يحمل على فعل المستحبات وفعل الواجبات قبلها وعلى ترك الشبهات والمكروهات وترك المحرمات قبلها وهناك خوف ضعيف أقل من هذا، لا يؤدي إلى ترك المحرمات كلها أو فعل الواجبات كلها فهو خوف ناقص..

ذكر البخاري في قوله : (باب الخوف من الله ﷻ).

قال ابن حجر: هو من المقامات العلية وهو من لوازم الإيمان، قال الله تعالى : ﴿ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٧٥) ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ (البقرة: ١٥٠) ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَلِمُوا ﴾ (فاطر: ٢٨)، وتقدم حديث ((أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية))، وكلما كان العبد أقرب إلى ربه كان أشد له خشية ممن دونه وقد وصف الله الملائكة بقوله : ﴿ تَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ (النحل: ٥٠)، والأنبياء بقوله : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَخَشَوْنَهُ وَلَا تَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ (الأحزاب: ٣٩)، وإنما كان خوف المقربين أشد لأنهم يطالبون بما لا يطالب به غيرهم فيراعون تلك المنزلة ولأن الواجب لله منه الشكر على المنزلة فيضاعف بالنسبة لعلو تلك المنزلة..

فالعبد إن كان مستقيماً فمن أي شيء يخاف؟!، فخوفه من سوء العاقبة لقوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ (أنفال: ٢٤)، وكذلك يخاف من نقصان الدرجة..

وإن كان مائلاً منحرفاً وعاصياً فخوفه من سوء فعله وينفعه ذلك مع الندم والإقلاع..

منى ينفع الخوف؟

ينفع مع الندم والإقلاع، فإن الخوف ينشأ من معرفة قبح الجناية والتصديق بالوعيد أو أن يحرم التوبة أولاً يكون ممن شاء الله أن لا يغفر له.

ما حكم الخوف من الله؟

الخوف من الله واجب، وهو من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب وهو فرض على كل أحد كم قال ابن القيم، إذاً يجب الخوف من الله ومن لا يخف فهو آثم.

قال ابن الوزير: ((أنا الأمان فلا سبيل إليه، وهو شعار الصالحين)).

من فوائد الخوف:

١- أن الله جعله شرطاً لحصول الإيمان ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ (ال عمران: ١٧٥). قال ابن جرير: لا تخافوا أيها المؤمنون المشركين ولا يعظم عليكم أمرهم ولا ترهبوا جمعهم مع طاعتكم إياي فأطعتموني واتبعتم أمري وإني متكلف لكم بالنصر والظفر ولكن خافوني واتقوني أن تعصوني أن تخالفوا أمري فتهلكوا إن كنتم مؤمنين فالله ﷻ أولى أن يخاف منه من الكفار والمشركين.

٢- ابتلى الله الصحابة ﷺ بابتلاء عظيم ليظهر الذي لا يخاف من الذي يخاف في الصيد ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن تَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٩٤). ليختبرنكم الله

أيها المؤمنون ببعض الصيد في حال الإحرام كي يعلم أهل طاعة الله والإيمان به المنتهون إلى حدوده وأمره ونهيه، يختبر ليظهر من الذي يخاف الله والذي لا يخافه ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ تَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾، يعني يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سراً وجهرأً ومحرم عليهم الصيد في الإحرام لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره ومن لا يطيع، أما الصحابة فنجحوا في ذلك، وأما اليهود ففشلوا عندما حرم الله عليهم الصيد يوم السبت فاستحلوا محارم الله بأدنى الحيل، فنصبوا الشباك يوم الجمعة وسحبوها يوم الحد، فلم يخافوا الله فهلكوا. فالمرء قد يتعرض أحياناً لمعصية أو شهوة والوقوع فيها يسير جداً وقد تكون الفضيحة مأمونة ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ تَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾، وكما في قصة يوسف وامرأة العزيز، هنا يكون الاختبار والبلاء.

٣- الخوف من الله عبادة قامت في قلب النبي ﷺ فارتفعت نفسه عن المحرمات والمحظورات لأنه يخاف رب الأرض والسماوات ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥-١٦) . فهو يَوْمٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ (الأنعام: ١٥-١٦) . فهو يخشى عذاب الله ولا يتعد حدوده.

٤- الخوف من الله من صفات أولي الألباب ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (١٩-٢١) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢٢﴾ (الرعد: ١٩-٢١)

الخوف من الله يدل على أن صاحبه صاحب عقل، من أولي الأبواب أي راجح العقل يعرف الشيء الذي يخوف حقاً.

ثمرات الخوف من الله :

أ- في الدنيا ..

١- من أسباب التمكين في الأرض، وزيادة الإيمان والطمأنينة لأنك إذا حصل لك الموعد وثقت أكثر، قال ﷺ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۖ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٣١﴾ (إبراهيم: ١٣-١٤) إذا الخوف من الله يؤدي إلى التمكين في الأرض والانتصار على الأعداء وأن يهلك الله عدوهم ويخزيهم ويورث المؤمنين أرضهم وديارهم.

٢- يبعث على العمل الصالح والإخلاص فيه وعدم طلب المقابل في الدنيا فلا ينقص الأجر في الآخرة ﴿ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝١٠٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١١٠﴾ ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝١١١﴾ رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تَحِيْرَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝١١٢﴾ (النور: ٣٦-٣٧)، أي تضطرب وتتقلب وهذا هو الذي دفعهم للعمل، يريدون النجاة ويحذرون الهلاك ويخافون أن يأتوا وكتبهم بشمالهم.

ب - في الآخرة..:

١- يجعل الإنسان في ظل العرش يوم القيامة، ((ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله))، ظاهر الحديث أنه يقولها بلسانه ليزجر المرأة عن فعلها وليذكر نفسه ويصر على موقفه ولا يتراجع بعد إعلان المبادئ، ((ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه))، الخشية الموجبة لدمع العين تؤدي إلى أن النار لا تمس العين يوم القيامة.

٢- من أسباب المغفرة، شاهد ذلك الحديث: رجل كان فيمن قبلنا عنده جهل عظيم ورزقه الله مالاً فقال لبنيه لما حضره الموت: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: فإني لم أعمل خيراً قط فإذا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في يوم عاصف، ففعلوا وما أسهل أن يعيده الله كما كان، قال: ما حملك؟ قال: مخافتك، فتلقاه برحمته...!!، فعذره الله بجهله وشفع له خوفه من ربه وإلا فالذي ينكر البعث كافر.

٣- يؤدي إلى الجنة لأن النبي ﷺ: ((من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة)) أي الذي يخاف من إغارة العدو وقت السحر يسير من أول الليل (أدلج) فبلغ المنزل والمأمن والمطلب، وهذا مثل ضربه الرسول صلى الله عليه وسلم لسالك الآخرة فإن الشيطان على طريقه والنفس الأمارة بالسوء والأمانى الكاذبة وأعوان إبليس، فإن تيقظ في مسيره وأخلص النية في عمله أمن من الشيطان وكيده ومن قطع الطريق عليه، هذه سلعة الله التي من دخلها كان من الأمنين.

٤- يرفع الخوف عن الخائف يوم القيامة: ((وعزتي وجلالي، وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنتّه يوم القيامة، وإذا أمنتني في الدنيا أخفته في الآخرة)).

٥- سبب للنجاة من كل سوء، ((ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية)) فهذه الخشية هي التي تحفظ العبد وتتجيه من كل سوء لأنه قال ووعد الله لا يخلف وهذا رسوله (منجيات) وعمّم تشمل الدنيا والآخرة.

٦- يصبح الإنسان ممدوحاً مثني عليه ويكفيه فخراً أن يدخل في أصحاب الأسماء والألقاب الشريفة ((المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والصائمين والصائمات والقانتين والقانتات والذاكرين والذاكرات والحافظين فروجهم والحافظات)) ألقاظ شريفة كانوا يسعون لحيازتها ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَصَاحِجِ يُدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ (السجدة: ١٧) .

الأسباب الجالبة للخوف :

الخوف ليس مقصوداً لذاته بل لما بعده من فعل الواجبات وعدم تركها والبعد عن المحرمات وعدم ارتكابها وإذا زاد يمكن أن يكون فعل مستحبات وترك مشتبهات وإذا زاد أكثر يصبح مذموماً وإذا نقص عن هذا يكون أيضاً ناقصاً لا يؤدي إلى النتيجة المطلوبة، فمن الأسباب الجالبة للخوف:

- ١- سابق الذنب الذي وقع فيه.
- ٢- حذر التقصير في الواجبات.
- ٣- الخوف من المصير أن يكون على ما يكره.
- ٤- إجلال الله وتعظيمه ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ (النحل: ٥٠) والملائكة خويفهم من الله شديد جداً ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ (سبا: ٢٣) فالله إذا تكلم بالكلمة في السماء من أوامره ضربت الملائكة بأجنحتها خضوعاً لقوله، فأصدرت صوتاً عظيماً كجرّ السلسلة العظيمة على الصخرة ثم يغشاهم من الفزع ما يغشاهم ورجعوا إلى حالة يستطيعون فيها الكلام قالوا ماذا قال ربكم نتأملت الأوامر قالوا الحق، فإذا إجلال الله يقتضي الخوف والهيبة منه جل وعلا وهذه أهمية معرفة أسماء الله وصفاته.

٥- الخوف من الله يتعلق بقضيتين..

أ - الخوف من عذابه..

ب - الخوف من الله..

الناس العامة ينزعون إلى الخوف من النار أكثر، وأهل الفقه والعلم خوفهم من الله قبل خوفهم من ناره لأن العامة قد يكون فهمهم وعلمهم قليل وبساطة فأحياناً لا يتذكر من كل القضية إلا النار، وقد لا يستوعب أن الخوف من الله قبل الخوف من ناره أول وأكبر وأعظم ولذلك قال ابن قدامة رحمه الله: ((في مقامي الخوف المقام الأول

الخوف من عذاب الله وهذا خوف عامة الناس وهذا النوع من الخوف يحصل بالإيمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، المقام الثاني الخوف من الله نفسه ﷻ وهو خوف العلماء والعارفين لأنه يكفيهم فقط ثلاث كلمات ﴿ وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ (ال عمران: ٢٨)، ولذلك قال النبي ﷺ: ((أنا أعرفهم بالله وأشدّهم له خشية)) وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر: ٢٨) لأنه لما كملت معرفتهم بربهم وأسمائه وصفاته أثرت الخوف ففاض الأثر على القلب ثم ظهر على الجوارح بهذه الأعمال.

تأمل النجاة لمن، وتقارن نفسك بصفاتهم ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (طه: ٨٢) . وكما في سورة العصر حيث أقسم الله أن الناس في خسران واستنثى ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (العصر: ٣) . وكما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (السجدة: ١٣) . هذه الآية تورث الخوف حيث أقسم الله أنه ليملاً جهنم فينزع القلب والله تعالى يقول: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ (مريم: ٧١) وقيل لفلان لم تبكي؟ قال لأنني أعلم يقيناً أنني سأاتي على جهنم ولكن ليس لدي يقين أنني سأنجو منها!!، وفي مسألة قبول العمل أيضاً والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة: ٢٧) . فإذا حصل الخوف حصلت أسباب النجاة.

٦- تدبر كلام الله ورسوله والنظر في سيرته، قال بعضهم :

((لأنه سيد الخائفين وإمام المتقين وأخشاهم الله فإذا تدبر المسلم كلام

الله وسنة نبيه شهد قلبه أموراً من صفات الله وعقوباته وانتقامه وكيف خاف الأنبياء والملائكة والصالحون، وليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع الفكر على معاني آيات الكتاب العزيز فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل وتحثه على التضرع والتخفف للقاء اليوم الثقيل)).

يقول ابن الجوزي: ((والله لو أن مؤمناً عاقلاً قرأ سورة الحديد وآخر سورة الحشر وآية الكرسي وسورة الإخلاص بتفكر وتدبر لتصدع قلبه من خشية الله وتحير من عظمة الله ربّه)).

٧- التفكر في عظمة الله ﷻ، فإنه من تفكر في ذلك خاف الله لا محالة لأن التفكر يوقعه على صفات الله جل جلاله وكبريائه ومن شهد قلبه عظمة الله وكبريائه علم شأن تحذيره عندما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (ال عمران: ٢٨) أي خافوه واحشوه بما أبدى لكم من صفاته وأسمائه وعدله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (الزمر: ٦٧) يمجّد الرب نفسه، أنا الجبار الملك، أنا المتكبر العزيز الكريم... قالها ﷻ فرجف به المنبر حتى قال الصحابة ليخرن به، وجعل النبي ﷺ على المنبر يقول ((يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده وقبض يده فجعل يقبضها ويبسطها ثم يقول أنا الجبار أين الجبارون أين المتكبرون)) ويتمايل الرسول صلى الله عليه وسلم عن يمينه وشماله حتى نظر صحابي إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه

حتى قال أساقط هو برسول الله؟!!! . ما السموات السبع في الكرسي إلا كلفة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة فإذا عرف الإنسان عظمة الرب جلب له ذلك الخوف منه.

٨- التفكير في الموت وشدته وأنه لا مفر منه ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ﴾ (الجمعة: ٨)، فهذا يوجب الخوف من الله ((أكثروا من ذكر هادم اللذات، الموت، فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه عليه ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه)).

١٠- التفكير فيما بعد الموت، في القبر وأهواله، قال ﷺ : ((كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنه يرق القلب وتدمع العين تذكر الآخرة ولا تقول هجرة)).

عن البراء يقول كنت مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على شفير القبر فبكى بل الثرى وقال : يا أخواني لمثل هذا فأعدوا...

١١- إذا قدم إلى القيامة وأهوالها وحديث البعث والنشور إلى ذبح الموت، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَحْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (البقرة: ٢٣) .

لفت النظر يقوي مراقبة العبد ربه.

١٢- إذا دخل أهل النار النار..، ماذا يوجد فيها من الأهوال في شدة عذابها؟!!!... ((إنها لإحدى الكبر)). قال الحسن: كبرت منذرة داهية عظيمة أعظم الدواهي ما أنذرت الخلائق بشيء قط أفظع منها.

وكيف قرت لأهل العلم أعينهم
أو استلذوا لذيق النوم أو هجعوا
والموت ينذرهم جهراً علانية
لو كان للقوم أسماء لقد سمعوا
أفي الجنان وفوز لا - انقطاع له
أم الجحيم فلا تبقي ولا تدم
لينفع العلم قبل الموت عالمه
قد سأل قوم بها الرجعى فما رجعوا

١٣- تفكر العبد في ذنوبه وأنه نسيه والله تعالى أحصاها ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاه، وأن الله يمكن أن يعطيه النعم استدراجاً ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ۖ ﴾ (الكهف: ٣٦)، في قصة صاحب الجنتين حين قال ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾

موانع الخوف :

الخوف تمنعه أشياء منها المعاصي، الدنيا، الرفقة السيئة، الغفلة وتبذل الإحساس..

الخوف القاصر نوع خطير من الخوف، وهو أن يحضر موعظة ويسمع ويتأثر ثم يمشي..

هذا خوف لا يكفي وإنما العبرة بما وقع نفع ودخل واستقر..

المطلوب الخوف المستمر..

قال أحد الصحابة: ((وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل إنها موعظة مودّع ماذا تعهد إلينا؟ فأعطاهم ﷺ الوصية)).. انظر إليهم .. يريدون التطبيق..

والرسول ﷺ قال: ((لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وخرجتم إلى الصدقات تجأرون إلى الله.. سلوني.. سلوني..)) فغطى الصحابة وجوههم بيبكون!!..

جاء حذافة وقد كان ينسب لغير أبيه فقال من أبي قال حذافة : فصار إثبات نسبه بالوحي، حتى جاء عمر فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً عائداً بالله من سوء الفتن..

فقال الرسول ﷺ : ((لم أرك اليوم قط في الخير والشر، إني صورت لي الجنة والنار رأيتهما دون هذا الحائط..)) .

قال ﷺ : ((أطت السماء وحق لها أن تأط ما فيها موضع إلا وفيها ملك قائم أو قاعد أو ساجد))..

فالخوف إذا باشر قلب العبد فاض أثره على الجوارح وظهر، وليس أنه كان شيئاً سريعاً وذهب..

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها

إن السفينة لا تجري على اليبس

قال ﷺ : ((ما رأيت مثل النار نام هاربها))..

قال بعضهم : ((كل عاصٍ لله فهو جاهل وكل خائف منه فهو عالم مطيع))، الخائف من الله يبادر إلى الخيرات قبل الممات ويغتتم الأيام والساعات..

ويتكلم عن حال السلف ابن المبارك رحمه الله:-

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابَدُوهُ
فِي سَفَرٍ عَنْهُمْ وَهُمْ رُكُوعٌ
أَطَارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمْ فَقَامُوا
وَأَهْلَ النَّوْمِ فِي الدُّنْيَا هَجُوعٌ
لَهُمْ تَحْتَ الظَّلَامِ وَهُمْ سَجُودٌ
أَنْيَسَ مِنْهُ تَنْفَرُجُ الضُّلُوعُ
وَحَرَسَ بِالنَّهَارِ لَطُولُ صُمْتِ
عَلَيْهِمْ مَنْ سَكِنَتْهُمْ خَشَعُوعُ

خامساً : الشكر :

الشكر خير عيش السعداء لم يترقوا إلى أعلى المنازل إلا بشكرهم، ولمّا كان الإيمان صفيين، نصفٌ شكر ونصفٌ صبر، كان حقيقاً على من نصح نفسه وآثر نجاتها وسعادتها.

هذا الشكر له مقامات عظيمة في الدين:

- ١- قرن الله ذكره بشكره وكلاهما المراد بالخلق والأمر والصبر خادم لهما ووسيلة إليهما وعونا عليهما، فقد قرن الله الشكر بالذكر فقال: ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة: ١٥٢)
- ٢- قرن الشكر بالإيمان، وأنه لا غرض له في عذاب الخلق إذا قالوا آمنا ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾ (النساء: ١٤٧) ، أي وفيتم حقه وما خلقتكم من أجله وهو الشكر بالإيمان .
- ٣- أهل الشكر هم المخصوصين بمنته عليهم من بين عباده فقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (الأنعام: ٥٣) .
- ٤- قسم الناس إلى شكور وكفور فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهل الكفر وأحب الأشياء إليه الشكر وأهل الشكر ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان: ٣) .
- ٥- يبتلى عباده ليستخرج الشكور فقال تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿ مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ ﴾ (النمل: ٤٠) .
- ٦- وعد الشاكرين بالزيادة ﴿ وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم: ٧) .
- ٧- الله يرضى عمل الشاكرين ويرضى الشكر ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾

(الزمر: ٧) . فيقارن الله بين الشكر والكفر وأنها ضدان ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤) والشاكرون في هذه الآيات الذين ثبتوا على نعمة الإيمان ولم ينقلبوا على أعقابهم. فمن الناس من لا يصمد عند الابتلاء والمحنة فيكفر ولا يثبت، ومنهم من يظهر لربه حقيقة ما في قلبه عند المحنة والابتلاء، فيتعالى لسانه بذكر ربه وحمده فيثبت ويشكر شكراً عملياً بالقلب واللسان والجوارح.

٨- علق الله المزيد بالشكر والمزيد من لا نهاية له، كما أن الشكر لا نهاية له، ووقف الله الكثير من الجزاء على المشيئة..

- ﴿ فَسَوْفَ يُعْطِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾ (التوبة: ٢٨) .

- في الإجابة ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾ (الأنعام: ٤١) .

- في المغفرة ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (الفتح: ١٤) .

- في الرزق ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (الشورى: ١٩) .

- في التوبة ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ (التوبة: ١٥) .

أما الشكر فإنه أطلقه ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٥)، ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤) ولم يقل ﴿ إِنْ شَاءَ !! ﴾

٩- أخبر ﷺ أن إبليس من مقاصده أن يمنع العباد من الشكر، فتعهد إبليس بأشياء ﴿ ثُمَّ لَا تَيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٧) فأبليس يريد حرمانهم من الشكر والقعود بينهم وبينه.

١٠- وصف الله الشاكرين بأنهم قليل من عباده ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ (سبا:١٣)، وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: [اللهم اجعلني من الأقلين] فقال ما هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين : الله تعالى يقول ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود:٤٠) ويقول ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ (سبا:١٣) ويقول ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ﴾ (ص:٢٤)، قال عمر: صدقت...!!، وإذا كان الشكر من صفات الأنبياء والمؤمنين فإنه ليس كذلك عند كل الناس فإن كثيراً منهم يتمتعون بالنعيم ولا يشكرونها.

١١- أثنى الله على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر وهو نوح عليه السلام ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء:٣) إشارة إلى الاقتداء به.

١٢- أخبر الله أنه يعبدده من شكره وأن من لم يشكره فإنه ليس من أهل عبادته : ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة:١٧٢).

١٣- أمر ﷺ عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليف بالشكر ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٤٤) .

١٤- أول وصية أوصى بها الإنسان بعدما عقل أن يشكر له ثم لوالديه ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي غَمَمَيْنِ إِنَّ أَشْكُرَّ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (النسان:١٤) .

١٥- أخبر الله أن رضاه في شكره ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر:٧)

١٦- أخبر عن خليله إبراهيم بشكر نعمته ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الشكل: ١٢٠-١٢١) . فمِنْ صفات الأمة القدوة الذي يؤتم به بالخير يعدل مثاقيل من أهل الأرض أنه كان قانتاً لله شاكراً لأنعمه فجعل الشكر غاية خليله.

١٧- الشكر هو الغاية من الخلق ﴿ وَاللَّهُ أَحْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨) . فهذه غاية الخلق، أما غاية الأمر ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (آل عمران: ١٢٣) فكما قضى الله لهم بالنصر فليشكروا هذه النعمة .

والخلاصة أن الشكر غاية الخلق وغاية الأمر فخلق ليشكر وأمر ليشكر ﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (السبقة: ١٥٢) ، والشكر مراد لنفسه والصبر مراد لغيره، أنت تصبر لأجل أن يحدث ما يترتب عليه وما يؤدي إليه من الأشياء، والشكر غاية في نفسه والصبر وسيلة إلى غيره وإلى ما يحمد وليس مقصوداً لنفسه.

س: بم يكون الشكر؟

والشكر لله يكون بالقلب واللسان والجوارح.

الشكر بالقلب :

علم القلب وذلك بأن يعلم أن الله هو المنعم بكل النعم التي يتقلب فيها [الناس يشكرون المعبر ولا يشكرون المصدر!!]، وهذا مهم في تربية الأطفال، أن يُعرّف من أين جاءت النعم ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾ (فاطر: ٣) ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦٧)!!

أول نعمة ؛ نعمة الخلق والإيجاد، ورصد النعم والتعرف إليها مرحلة تمهيدية للشكر، وجاءت كثير من الآيات بإحصاء النعم ليكتشف الإنسان كثرتها فيعلم أن النعم لا يمكن حصرها ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (النحل: ١٨).

ولكن ذكّر لنا أشياء فرعية وأصلية، والفروع نردها إلى أصولها، كالصحة فهي نعمة أصلية وما يتفرع منها من النعم (الحركة - المشي - العمل - الرياضة - النوم - الأكل - الشرب - السفر)، كذلك المال والوقت والعلم كلها نعم أصلية.

وتستطيع أن تضم النعم إلى ما يحاذيها ويشابهها، أنعم علينا بوصفنا مخلوقات بعد الخلق والإيجاد ثم نعمة آدمية والإنسانية وأنعم علينا

بوصفنا مسلمين من نعمة الهداية والإيمان. ونعمة التربية التي ترتقي بالفرد درجة بعد درجة وتعلم علماً بعد علم حتى يبلغ كماله، وفوق كل ذلك نعمة النبوة للذين اصطفاهم الله، والصديقين والشهداء والصالحين.

إن عرض النعم على العامة أمر مهم جداً وهو قضية في الدعوة، فالله ﷻ خص الآدمي أنه خلقه بيده ((لما خلقت بيدي)).

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا ﴾ (الن:٢٠) ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝ وَءَاتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝ ﴾ (إبراهيم:٣٢-٣٤) .

ونذكر في سورة النحل (سورة النعم): ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَعَلَّمَتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ (النحل:١٤-١٨) .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۝ ﴾ (النحل:٨١) .

الشكر باللسان :

لسان المرء يعرب عما في قلبه، فإذا امتلأ القلب بشكر الله لهج اللسان بحمده والثناء عليه، وتأمل ما في أذكار النبي ﷺ من الحمد والشكر لرب العالمين..

١- كان لما يفيق من نومه يقول: [الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور]، [الحمد لله الذي عافاني في جسدي ورد علي روحي وأذن لي بذكره].

٢- وإذا أوى إلى فراشه لينام يقول: [الحمد لله الذي أطعنا وسقانا وآوانا فكم ممن لا كافي له وملا مؤوي].

٣- ومن أذكار الصباح والمساء [اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد والشكر] من قالها حين يصبح فقد أدى شكر ليله.

٤- سيد الاستغفار [أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي] اعتراف بالنعمة واعتراف بالتقصير في شكرها لأنه يذنب.

٥- يفتح الأدعية بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله.

٦- في كل خطبة أو نكاح أو أمر ذي بال يحمد الله.

٧- دعاء الاستفتاح - سورة الفاتحة - الرفع من الركوع - أذكار ما بعد السلام - ربنا ولك الحمد - أدعية التهجد - اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن - الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

- ٨- إذا أكل أو شرب أو سئل عن حال أو سافر أو عطس.
- ٩- في أي ساعة يحمد ربه من ليل ونهار، له في كل تحميدة صدقة.

وقعت يد عائشة على يد النبي ﷺ وهو ساجد في بطن الليل وقدماه منصوبتان يقول: [اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك].

قال ﷺ : [يا معاذ إني أحبك فلا تدع أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك].

الشكر بالجوارح :

وهي ما سوى القلب واللسان من جوارح، فما من عمل يعمل به ابن آدم من الطاعات والعبادات إلا وهو شاكر فيه لنعم ربه ﷻ.

والخلاصة في الشكر بالجوارح ؛ العمل الصالح، فعند بلوغ الأربعين ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ (الأحقاف: ١٥) ، فسأل الله العمل الصالح عقب سؤاله التوفيق على شكر نعمته يعني أن الشكر باللسان وحده لا يكفي.

❁ المقصود أن المسلم عليه أن يشكر ربه بجوارحه بسائر أنواع الصدقات وكل معروف صدقة ولا يغني شكر يوم عن يوم آخر.

من الأشياء التي تؤدي إلى الشكر:

١- أنك تنتظر إلى من هو دونك، قال ﷺ : [انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله]. فمما يحفظ العبد من ترك الشكر عندما ينظر إلى من هو فوقه أن هذه قسمة الله ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ (الأنعام: ١٦٥)

٢- أن يعلم العبد أنه مسئول عن النعمة ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (التكاثر: ٨) ومحاسب عليها حتى الماء البارد، ومن نوقش الحساب عذب.

ويشتط الناس في فهم شكر ما أسبغ الله عليهم من النعم لدرجة أنهم يحرمون أنفسهم منها، والله رضي لنا أن نستمتع وأن نشكر ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (البقرة: ٦٠) ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٢).

فلا يمكن أن يكون الشكر بتحريم الحلال وهذا من مبادئ الصوفية، فאלله رضي لنا أن نستخدم النعم المباحات ونشكره عليها ﷺ، ولو كان شرطاً في الانتفاع بالنعمة أداء ثمنها شكراً ؛ ما وقّت كل أعمال العباد ولا على نعمة واحدة [أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي] فتشكر الله وتعترف بالنعمة وتستغفر من التقصير بشكر النعمة.

فالحل أن نستخدم النعم فيما يرضي الله ونثني عليه ونشكره ونستغفره من التقصير في الشكر وهو تعالى رضي منا بهذا..

وقد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قام حتى تفتطرت قدماه وتشققت قيلول له أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: [أفلا أكون عبداً شكوراً!!]. فتشكر الله على المغفرة.

ومن الوسائل أن ندعو الله أن يعيننا على الشكر [اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك]، قالها لمعاذ، وسئل الرسول ﷺ: أي المال نتخذ؟ فلفت نظرهم ﷺ فقال: [ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر دينه ودنياه].

قال ﷺ: ((إن الله ليرضى على العبد أن يأكل الآكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها)).

قال الحسن البصري رحمه الله: إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء فإذا لم يشكر عليها قلبها عذاباً ولهذا كانوا يسمون الشكر (الحافظ) لأنه يحفظ النعم الموجودة و (الجالب) لأنه يجلب النعم المفقودة.

هكذا يحفظ ويحصل من علو منزلة الشكر وعظمه عند الله، ولا ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد ← قيد النعم، فهو يقيد النعمة ألا تتقلب ولا تهرب.

قال عمر بن عبد العزيز: [قيدوا نعم الله بشكر الله]، والشكر مع المعافاة عند بعض أهل العلم أعظم من الصبر على الابتلاء. فقال مطرف بن عبد الله: [لأن أعافي فأشكر أحب إليّ من أن أبلى فأصبر].

فإذا رزقت الشكر على النعمة فإن هذا لا يقل عن الصبر على

المصيبة. وقال الحسن: [أكثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى: ١١) والله يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته فإن ذلك شكرها بلسان الحال].

سادسا : الرضا :

ثمرات الرضا:

إن للرضا ثمرات كثيرة .. على رأسها :

١- الرضا والفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى .. والنبي ﷺ كان أرضى الناس بالله وأسرَّ الناس بربه وأفرحهم به تبارك وتعالى .. فالرضا من تمام العبودية ولا تتم العبودية بدون صبرٍ وتوكلٍ ورضا وذلٍ وخضوعٍ وافتقارٍ إلى الله ..

٢- إن الرضا يثمر رضا الرب عن عبده، فإن الله ﷻ رضي بمن يعبدُه عَمَّنْ يعبدُه على من يعبدُه وإذا ألححت عليه وطلبتَه وتذَلَّتْ إليه أقبل عليك.

٣- الرضا يخلص من الهمِّ والغمِّ والحزن وشتات القلب وكسف البال وسوء الحال، ولذلك فإن باب جنة الدنيا يفتح بالرضا قبل جنة الآخرة ؛ فالرضا يوجب طمأنينة القلب وبرَّده وسكونه وقراره بعكس السخط الذي يؤدي إلى اضطراب القلب وريبته وانزعاجه وعدم قراره فالرضا ينزل على قلب العبد سكينَةً لا تنتزل عليه بغيره ولا أنفع له

منها ؛ لأنه متى ما نزلت على قلب العبد السكينة : استقام وصلحت أحواله وصلح بآله، ويكون في أمنٍ ودعةٍ وطيبٍ عيشٍ ..

٤- الرضا يخلص العبد من مخاصمة الرب في الشرائع والأحكام والأقضية ..

مثلاً إبليس لما أمر بالسجود عصى ؟ رفض ؟

لم يرضَ .. كيف أسجد لبشرٍ خلقته من ترابٍ ؟ .. فعدم الرضا من إبليس أدى إلى اعتراضٍ على أمر الله .. فإذا منافقوا عصرنا الذين لا يرضون بحكم الله في الربا والحجاب وتعدد الزوجات في كل مقالاتهم في مخاصمةٍ مع الرب سبحانه .. لماذا ؟!!! ... كلامهم يدور على مخاصمة الرب في شرعه وإن لم يصرحوا بهذا .. ! فالرضا يخلص الإنسان من هذه المخاصمة ..

٥- الرضا من العدل .. الرضا يُشعر العبد بعدل الرب .. ولذلك كان ﷺ يقول : ((عدلٌ في قضاؤك)) .. والذي لا يشعر بعدل الرب فهو جائرٌ ظالمٌ، فإله أعَدلَ العادلين حتى في العقوبات .. فقطع يد السارق عقوبةً، فإله عدلٌ في قضاائه وعقوباته فلا يُعترض عليه لا في قضاائه ولا في عقوباته ..

❁ الرضا مفيدٌ جداً أن المرء لا يأسف على ما فاتته ولا يحزن ولا يتكدر على ما أصابه ؛ لأنه مقدّرٌ مكتوبٌ ..

❁ صاحب الرضا واقفٌ مع اختيار الله .. يحس أن عنده كنزٌ إذا

﴿ أكبر من الجنة .. لأن الله عندما ذكر نعيم الجنة قال : ((ورضوان من الله أكبر)) ..

رضا الله إذا حصل هو أكبر من الجنة وما فيها ..

والرضا صفة الله والجنة مخلوقة .. وصفة الله أكبر من

مخلوقاته كلها ..

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ٧٢) ..

رضا الله أكبر من الجنة :

الرضا يخلص العبد من سخط الناس .. لأن الله إذا رضي عن العبد أَرْضَى عنه الناس .. والعبد إذا سعى في مرضاة الله لا يبالي بكلام الناس ..

أما المشكلة إذا سعى في مرضاة الناس فسيجد نفسه متعباً ؛ لأنه لن يستطيع إرضاءهم فيعيش في شقاء .. أما من يسعى لرضا الله فلا يحسب لكلام الناس أي حساب ولن يتعب نفسياً .. ولو وصل إليه كلام الناس فلن يؤذيهِ نفسياً ولن يبالي مادام الله راضياً عنه ..

سابعاً : الصبر :

فإن الله جعل الصبر جواذاً لا يكبو، وصارماً لا ينبو، وجنداً لا يهزم، وحصناً حصيناً لا يهدم، وهو مطية لا يضل راكبها فهو والنصر أخوان شقيقان، فالنصر مع الصبر، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد، ومحلّه من الظفر محل الرأس من الجسد، وهو سبيل النجاح والفلاح، وهو فضيلة يحتاج إليه الإنسان في دينه ودنياه، فحال الإنسان إما بين صبر على أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه، وقد يجري عليه اتفاقاً، ونعمة يجب عليه شكر المنعم عليها، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم إلى الممات، فالحياة لا تستقيم إلا بالصبر، فهو دواء المشكلات لدار الابتلاء، والصبر زاد المجاهد إذا أبطأ عنه الصبر، وزاد الداعية إذا أبطأ عنه الناس بالإجابة، وزاد العالم في زمن غربة العلم، بل هو زاد الكبير والصغير، والرجل والمرأة، فبالصبر يعتصمون وإليه يلجئون وبه ينطلقون.

قال الإمام أحمد - رحمه الله - في كتاب الزهد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ((وجدنا خير عيشنا بالصبر))، إن الله وصف الصابرين بأوصاف وخصّهم بخصائص لم تكن لغيرهم، وذكر الصبر في نحو تسعين موضعاً من الكتاب الكريم، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له.

إن للصابرين معية مع الله، ظفروا بها بخير الدنيا والآخرة، وفازوا بها بنعمة الله الظاهرة والباطنة، وجعل الله سبحانه الإمامة في

الدين منوطة بالصبر واليقين فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ((بالصبر واليقين ؛ تتال الإمامة في الدين)).

❁ أنواع الصبر الثلاثة إذاً:

- ١- صبر على طاعة الله.
- ٢- صبر عن معصية الله.
- ٣- صبر على أقدار الله المؤلمة.

هذا الصبر علق القرآن الفلاح عليه فقال الله ﷻ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠) فعلق الفلاح بمجموع هذه الأمور، ونهى عن ما يضاد الصبر فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَأُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ هُمْ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، كما قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ (آل عمران: ١٣٩)، وكذلك فإنه ﷻ أخبر عن مضاعفة الأجر للصابرين: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ (القسم: ٥٤)، وإذا كانت الأعمال لها أجر معلوم محدود فإن الصبر أجره لا حد له، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَوَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠).

قال سليمان بن القاسم: كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر لأجل هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُؤَوَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال: كالماء المنهمر، وعلق الله الإمامة في الدين على الصبر وعلى اليقين كما مر في الآية، وجعل الله الظفر بمعية الصبر فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

(الأفقال: ٤٦)، وجعل للصابرين أموراً ثلاثة لم يجعلها لغيرهم، وهي الصلاة منه والرحمة والهداية ﴿وَنَشِّرَ الصَّابِرِينَ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُمْتَدُونَ ﴿٥٢﴾ (البقرة: ١٥٥-١٥٧) .

❁ وجعل الصبر ﷺ عوناً وعدة وأمر بالاستعانة به، فقال :
 {واستعينوا بالصبر والصلاة}، فمن لا صبر له؛ لا عون له، وعلق النصر على الصبر والتقوى فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (ال عمران: ١٢٥)، وقال ﷺ: (واعلم أن النصر مع الصبر) وجعل سبحانه الصبر والتقوى جنة عظيمة من كيد العدو ومكره فقال ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ (ال عمران: ١٢٠)، وأخبر أن ملائكته تسلم في الجنة على الصابرين فقال: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٤) وجعل الله الصبر منزلة فوق منزلة المعاقب لمن عاقبه بمثل العقوبة فهو أفضل وأكثر أجراً فقال: ﴿وَإِن عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل: ١٢٦)، فتأمل هذا التأكيد (لئن) اللام ولائم أخرى للتأكيد (لهو).

ورتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر مع العمل الصالح فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (مود: ١١)، وجعل الصبر على المصائب من عزم الأمور وهذه مرتبة لا ينالها أي أحد فقال ﷺ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (الشورى: ٤٣)، وأوصى لقمان الرجل الصالح

الحكيم ولده بأن يصبر على ما أصابه في سبيل الله : ﴿ يَبْنِيْ أَيْمَنَ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (لقمان: ١٧) .

ووعده الله المؤمنين بالنصر والظفر، وهي كلمته التي سبقت لهم نالوها بالصبر فقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٧) .

وعلق تعالى محبته بالصبر، وجعلها لأهل الصبر فقال: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٦)، وأخبر عن خصال من الخير لا يلقاها إلا الصابرون فقال تعالى في أهل العلم الذين علموا قومهم المفتونين بقارون : ﴿ وَيَلْعَنُكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَرَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ (القصص: ٨٠) وعند الدفع بالتي هي أحسن ﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (نصرت: ٣٥)، وأخبر أنه لا ينتفع بآياته ولا يستفيد منها إلا صاحب الصبر المكثّر منه فأتى به بصيغة المبالغة في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (إبراهيم: ٥)، وفي سورة لقمان قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (لقمان: ٣١)، وبعد قصة سبأ قال: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ

مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾، وفي ذكر النعمة بالسفن على العباد تتقل أنفسهم وبضائعهم قال: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَجْوَارُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٢١﴾﴾ (الشورى: ٢٢)، فهذه أربع مواضع في القرآن الكريم تدل على أنه لا ينتفع بالآيات إلا أهل الصبر والشكر، الدين كله صبر وشكر، الإيمان نصفان صبر وشكر، حياة المسلم كلها صبر وشكر، ماذا يوجد في الطاعات والعبادات والتقرب إلى الله غير الصبر والشكر..؟!

وأثنى الله على عبده أيوب بأحسن الثناء لأنه صبر فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾، فمدحه بقوله نعم العبد لأنه صبر .

وحكم الله بالخسران حكماً عاماً على من لم يكن من أهل الصبر فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ (العصر) .

وخص الله أهل الميمنة ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ بأنهم أهل الصبر والمرحمة فقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ .

وقرن الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان فقرنه بالصلاة فقال: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴿٤٥﴾﴾ .

وقرنه بالأعمال الصالحة فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿١١﴾﴾ .

وقرنه بالتقوى فقال : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ (يوسف: ٩٠) .

وقرنه بالتواصي بالحق فقال: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

وقرنه بالرحمة فقال: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ﴾ .

وقرنه باليقين فقال: ﴿ لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَاقِبَتِنَا يُوْقِنُونَ ﴾ .

وقرنه بالصدق فقال: ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ

وَالصَّابِرَاتِ ﴾ (الأحزاب: ٣٥) ، فنعمة المنزلة منزلة الصبر ونعمة الخلق خلق

الصبر ونعم أهله أهل الصبر، فالصبر طريق الجنة: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ

تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ

وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ

أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة: ٢١٤) .

هذا الصبر العناية به في القرآن الكريم كبيرة جداً دليلاً على

أهميته، دليلاً على أنه خلق عظيم:

لَا تَبْأَسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالَبَةٌ

إِذَا اسْتَجَنَّتْ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى الْفَرْجَ

أَخْلَقَ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ

وَمَدَّ مِنَ الْقُرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يُلْجَ

وَقُلْ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرِ يَحَاوِلُهُ

وَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالْظَفَرِ

والصبر لدخول الجنة وسبب النجاة من النار، فالجنة حفت بالمكاره، والنار حفت بالشهوات، فكيف تدخل الجنة بدون صبر على المكاره؟، وكيف تقى نفسك النار بدون صبر عن الشهوات؟ .

حفت الجنة بالمكاره :

علمنا أنه لا طريق للجنة إلا عبر المكاره، لأنه قال حُفَّتْ، من جميع الجهات، فإذا ما ركبت المكاره لا تدخل الجنة، والمكاره هي ما تكرهه النفس من المجاهدة اللازمة لأداء العبادات (صلاة الفجر - الوضوء في البرد- الصبر على المصائب- الجهاد)، فلا يمكن دخول الجنة إلا باختراق المكاره، ولا يمكن اختراقها إلا بالصبر، وأما النار فإنها حفت بالشهوات، ولا يمكن منع النفس من الدخول في النار إلا إذا صبر عن المعاصي وامتنع عن المعصية وحبس نفسه عن ذلك فهذه إذا فضائل هذا الخلق الكريم.

ما حكم الصبر؟

أصل الصبر واجب، الصبر من حيث الجملة واجب، والله أمر به ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ٤٥) ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ (ال عمران: ٢٠٠) ونهى عن ضده ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ (الأحقاف: ٣٥) ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ (الأنفال: ١٥) ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد: ٣٢) ، ورتب عليه خيري الدنيا والآخرة، لكن عندما نأتي إلى التفصيل فالصبر منه ما هو صبر واجب، يأتى الإنسان إذا لم يصبر ومنه ما هو صبر مستحب فهو واجب في الواجبات وواجب عن المحرمات ومستحب عن المكروهات وإذا صبر عن المستحب ولم يفعله فصبره مكروه .

ومما يدل على أن الصبر قد يكون لازماً قول الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ صَبْرُكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل: ١٢٦) فهذا يدل على أن الصبر قد لا يكون لازماً كقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَيْنَ صَبْرُكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل: ١٢٦) فما حكم الصبر هنا؟، أنت مخير بين أن تعاقب من عاقبك؟ ما الحكم الشرعي؟ يجوز لك القصاص فتنتقم منه بمثل ما ظلمك، ما حكم الصبر وعدم الانتقام؟ مستحب، فإذا لو قلت ما حكم الصبر على صلاة الفجر؟ واجب، ما حكم الصبر عند المصيبة بمنع النفس عن النياحة؟ واجب، ما حكم الصبر عن الانتقام ممن أساء إليك بمثل ما أساء؟ مستحب..

فالصبر إذاً منه ما يكون واجباً ومنه ما يكون مستحباً والصبر جاء في صيغة المفاعلة في القرآن فقال {وصابروا}، وهذه عادة ما تكون إلا بين طرفين {وصابروا}، فمعنى ذلك أن هناك مغالبات بين المسلم والعدو، وأنا لا بد أن نصابر أنفسنا على باطلهم وعلى جهادهم وعلى مقاتلتهم ومرابطتنا في الثغور وثباتنا عليها حتى لا ينفذوا إلينا من هذه الجهات فهذا صبر مهم جداً ..

مراتب الصبر:

والصبر مراتب فالصبر على طاعة الله أعلى منزلة من الصبر عن المعاصي والصبر عن المعاصي أعلى منزلة من الصبر على الأقدار . فالصبر على الواجبات أعلى أنواع الصبر لأن جنس فعل الواجبات أعلى درجة عند الله من جنس ترك المحرمات، وأجر ترك المحرمات أكبر من أجر الصبر على المصائب، لأن الصبر على الواجب والصبر على ترك

الحرام عملية اختيارية، لكن لما نزلت به المصيبة، شيء بدون اختياره، ليس له إلا كف النفس والصبر.

عن يوسف عليه السلام: "كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها الذي دعت به إليه من الحرام أكمل من صبره على إلقاء أخوته له في الحب"، فصبره على الفاحشة أكمل وأعظم وأكثر أجراً من صبره على السجن وإلقاء أخوته له لأن الأول فيه شيء اختياري وصبره عليها صبر رضا ومحاربة للنفس لا سيما مع وجود الأسباب القوية المزيّنة للحرام فكان شاباً أعزباً وغريباً عند البلد وعبداً مملوكاً والمرأة جميلة وصاحبة منصب وهي التي دعت به فسقطت الحواجز النفسية ثم استعانت عليه بكيد النسوة وهددته بالسجن، ثم إن زوجها ليست عنده غيره ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ (يوسف: ٢٩)، وغلقت الأبواب وغاب الرقيب، فصار داعي الزنا قوي جداً ولكنه صبر عليه الصلاة والسلام، أما الأمور الأخرى من السجن وإلقاء أخوته له في الحب فجرت عليه بغير اختياره ولا كسب له فيها.

مجالات الصبر:

١- الصبر على بلاء الدنيا ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلاء: ١) مشقة وعناء وبلاء وفتن، والله تعالى قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَشَرُّ الصَّبِيرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٥).

٢- الصبر على مشتهيات النفس ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (المنافقون: ٩)، ولذلك

قال بعض السلف: "ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالنسراء فلم نصبر!" وقالوا: "البلاء يصبر عليه المؤمن والعافية لا يصبر عليها إلا صديق". والصبر على مشتبهات النفس لابد أن يكون من وجوه أربعة كما قال ابن القيم رحمه الله :

- ١- أن لا يركن إليها ولا يغتر بها.
 - ٢- أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها.
 - ٣- أن يصبر على أداء حق الله فيها.
 - ٤- أن لا يصرفها في حرام.
- ٣- الصبر عن التطلع إلى ما بيد الآخرين، وعن الاعتزاز بما ينعمون به من مال وبنين، فبعض قوم قارون ما صبروا فقالوا: ﴿يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾، والله تعالى قال: ﴿أَتَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (المومنون: ٥٦) ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْخَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه: ١٣١) .
- ٤- الصبر على طاعة الله، وهذا أعظم أنواع الصبر وأشدّه على النفوس ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ (مريم: ٦٥) ، اضطبر أكمل وأبلغ من اصبر فالزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه: ١٣٢) على الصلاة وعلى أمر الزوجة بالصلاة، والصبر على الطاعة له ثلاث أحوال:

أ- قبل الطاعة بتصحيح النية وطرده شوائب الرياء .

ب- حال الطاعة أن لا تغفل عن الله فيها ولا تتكاسل عن أدائها وتراعي واجباتها وأركانها والخشوع في الصلاة.

ج- بعد الفراغ منها بأن لا تفشي ما عملت وتُعجب به وتُسَمِّع به في المجالس ﴿ لَا تُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ (البقرة: ٢٦٤) ، ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٣) .

٥- الصبر على مشاق الدعوة إلى الله ﷻ فإنه غير خاف على الدعاة حال الناس اليوم من البعد عن الدين والبعد هذا يستلزم دعوة كبيرة وإنكاراً للمنكرات وصدع بالحق، عمر بن عبد العزيز لما استشعر المسؤولية الكبيرة في تغيير الانحرافات المتركمة من سنوات طويلة في العهود السابقة قال : "إني أعجل أمراً لا يعين عليه إلا الله!" فنوح عليه السلام صبر هذا الصبر العظيم في الدعوة ٩٥٠ سنة، ألف سنة إلا خمسين عاماً على جميع أنواع الابتلاءات ﴿ دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً ﴾ (نوح: ٦٥) ، وهكذا سرّاً وجهاراً ماترك فرصة إلا قام بالدعوة، ثم الدعوة ليست عملية سهلة لأن الإنسان يجد كيد من الأعداء وحسد حتى من الناس الذين يظنهم معهم والقريبين منه على ما آتاه الله من فضله فيتمنون أن يوقع به ويضر ويتوقف ولذلك لابد للداعية أن يصبر في الداخل والخارج، القريبين والبعيدين، مع الناس الذين هم ضده علناً أو الذين يضمرون له الشر في داخل أنفسهم، ﴿ لَتَبْلُؤُنَّ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ﴾

والحل .. ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (ال عمران: ١٨٦) .
 ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (المزمل: ١٠٠) .

الرسول كان من رأس مالهم وبضاعتهم الصبر على إيذاء أقوامهم بل أكدوا على ذلك وقالت الرسل لأقوامهم: ﴿ وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (إبراهيم: ١٢) ، ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (الأنعام: ٣٤) وهكذا يصبر الداعية على طول الطريق وعقباته وبطء النصر وتأخره، ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلِينَ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة: ٢١٤) ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف: ١١٠) .

٦- إن هناك صبراً حين البأس وفي الحرب وعند لقاء العدو والاحتام الصفين فيكون الصبر شرط للنصر والفرار كبيرة ولذلك أوجب الله الثبات ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ (الأنفال: ٤٥) وحذر من الفرار وتولي الأديبار وعندما تضطرب المعركة وينفرط العقد فيكون الصبر أشد ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (ال عمران: ١٤٢) ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْفَكُ عَنْ أَقْبَابِهِمْ عَلَىٰ مَا قُتِلَ أَنْفَكْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ (ال عمران: ١٤٤) .

وحدثنا الله عن النلة المؤمنة البقية الباقية بعد عمليات الترشيح

المستمرة في قصة طالوت ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ وعصوه من قبل ومن بعد وما بقي معه إلا قليل، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ حتى الذين جاوزوا النهر كان بعضهم استسلاميين فقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩)، لذلك كان المسلمون صَبْرٌ عند اللقاء، يصبرون وكانوا يتناقلون بينهم عبارة "إنما النصر صبرُ ساعة"، والمرامة والمدافعة الآن بين فريقين، الذي يصبر أكثر هو الذي ينتصر، فأوصى الله عباده بالصبر على ما يلاقونه من ضرر الناس وأن لا يقابلوا السيئة بمثلاً ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (فصل: ٢٤)، فالصبر يكون أحياناً للمعلم على أذى التلميذ، للداعية على أذى المدعو، للمربي على أذى المتربي وهكذا..

ولذلك يقول الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (١٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا، فتعهد وقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ (الكهف: ٦٧-٦٩) تعهد ولكنه لم يستطع أن يصبر في تلك المواقف، فإذا الصبر له مواقف ومواطن وحالات ومجالات ينبغي علينا أن نكون من الصابرين لله فيها...

ثامناً: المحاسبة:

المحاسبة قضية مهمة للغاية، تدور عليها السعادة ولا يحصل الصلاح إلا بها.. محاسبة النفس أمر عظيم جداً، المحاسبة لا تصلح النفس إلا بها، المحاسبة من قام بها اليوم أمن غداً، المحاسبة أن تنتظر في نفسك وتأمل فيها

وتعرف عيوبها، المحاسبة لا نجاة إلا بها ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المجلاة: ٦) .

محاسبة النفس طريقة المؤمنين وسمة الموحدين وعنوان الخاشعين، فالمؤمن متق لربه محاسب لنفسه مستغفر لذنبه، يعلم أن النفس خطرهما عظيم، وداؤها وخيم، ومكرها كبير وشرها مستطير، فهي أمارة بالسوء ميالة إلى الهوى، داعية إلى الجهل، قائدة إلى الهلاك تواقفة إلى اللهو إلا من رحم الله، فلا تترك لهواها لأنها داعية إلى الطغيان، من أطاعها قادتته إلى القبائح، ودعته إلى الرذائل وخاضت به المكاره، تطلعاتها غريبة، وغوائلها عجيبة، ونزعاتها مخيفة، وشرورها كثيرة، فمن ترك سلطان النفس حتى طغى فإن له يوم القيامة مأوى من جحيم ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ (١٧) ﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (١٨) ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (١٩) ، وعلى النقيض ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ (٢٠) ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٢١) (النزعات: ٣٧-٤١) .

❦ قال الحسن: [إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همته] .

ويوجد واعظ في قلب كل مسلم إذا أراد أن يدخل في باب حرام قال: ويلك لا تفتحه، إنك إن تفتحه تلجه!، لا ترح الستار عن باب الحرام، إنك لو نظرت انجذبت، ويلك لا تفتحه، إنك إن تفتحه تلجه! ..

قال ميمون بن مهران: [النفس كالشريك الخوان إن لم تحاسبه؛ ذهب بمالك!] .

المحاسبة وقت الرخاء سهلة بالنسبة للمحاسبة في وقت الشدة، فرحم الله عبداً قال لنفسه ألسنت صاحبة كذا وكذا؟! هذا نوع من الحساب على المعاصي، وحساب على النوايا كقولك ماذا أردت بالعمل والأكلة والشربة..

فوائد المحاسبة ومصلحتها :

أن المرء يطلع على عيوب نفسه ويكتشف أشياء تدهشك ولا يفقه الرجل حتى يمقت نفسه ويحتقرها في جنب الله، وكان بعض السلف يقول في دعائه في عرفة (اللهم لا ترد الناس لأجلي)! .

وكان محمد بن واسع يقول: (لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إليّ)!، مع أنه من كبار العباد في هذه الأمة .

وقال يونس بن عبيد: (إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدة)!

وهذا حماد بن سلمة دخل على سفيان الثوري وهو يحتضر فقال: (يا أبا عبد الله أليس قد أمنت مما كنت تخافه وتقدم على من ترجوه وهو أرحم الراحمين؟!) قال: (يا أبا سلمة أتطمع لمثلي أن ينجو من النار) قال: (إي والله إني لأرجو لك ذلك) .

تاسعاً : التفكير :

إن التفكير من أعمال القلوب العظيمة وهو مفتاح الأنوار ومبدأ الإبصار وشبكة العلوم والفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله ولكن جهلوا حقيقته وثمرته وقليل منهم الذي يتفكر ويتدبر وقد أمر الله تعالى في التفكير

والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ (ال عمران: ١٩١) .

❁ وقال عطاء انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتا وبيننا وبينها حجاب فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول رسول الله ﷺ : { زر غيباً ؛ تزدد حباً } ، قال ابن عمير: فأخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ ، قال فبكت، وقالت: كل أمره كان عجباً، أتانني في ليلتي ثم قال: ذريني أتعبد لربي ﷻ فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكي حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتاه بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.. فقال: لقد أنزلت عليّ الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتدبر فيها أو كما قال ﷺ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (ال عمران: ١٩٠) ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها . [الحديث صححه الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة] .

❁ وعن محمد بن واسع أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت : "كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر".

قال الحسن: "تفكر ساعة خير من قيام ليلة".

قال الفضيل: "الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك".

قيل لإبراهيم إنك تطيل الفكر فقال: "الفكرة مخ العقل".

وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل: "إذا المرء كانت له فكرة؛ ففي كل شيء له عبرة".

وقال الحسن: "من لم يكن كلامه حكمة فهو لهو، ومن لم يكن سكوته تفكيراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو".

وفي قوله تعالى: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ عَائِيَّتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (الأعراف: ١٤٦) قال: أمنع قلوبهم التفكير في أمري.

وكان عدد من أهل العلم والحكمة يطيلون الجلوس والتفكير.

وقال عبد الله بن المبارك يوماً لسهل بن عدي لما رآه ساكناً متفكراً: أين بلغت؟ قال: الصراط!

وقال بشر: "لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله وَجَّهًا".

وقال ابن عباس: "ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة بلا قلب".

وبينما كان أبو شريح يمشي إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي فقبل له ما يبكيك؟ قال: "تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي".

وقال أبو سليمان: "عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكير".

وقال: "الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب. ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكير يزيد الخوف".

وقال ابن عباس: "التفكر في الخير يدعو إلى العمل به والندم على الشر يدعو إلى تركه. وإذا كان هم العبد وهواه في الله ﷻ جعل الله صمته تفكراً وكلامه حمداً".

وقال الحسن: "إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة".

وكان داود الطائي رحمه الله على سطح في ليلة قمراء فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له، فوثب صاحب الدار من فراشه وبيده سيف ظن أنه لص، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحك من السطح، قال: ما شعرت بذلك.

وأشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في التأمل في أسماء الله وصفاته، وجنته وناره، ونعيمه وعذابه، وأخرته وآلائه وآياته المسطورة في كتابه والمنثورة في كونه وما خلق ﷻ، وما ألد هذه المجالس وما أحلاها وما أطيبها لمن رزقها.

وقال الشافعي رحمه الله: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستتباط بالفكر. وكان الشافعي رحمه الله: من أقوى الناس عقلاً وأجودهم استتباطاً، ومن القلائل الذين مروا في الأمة الإسلامية بهذه المنزلة، وقال أيضاً: صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور والعزم على الرأي سلامة من التفريط والندم والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة، ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تقدم.

وقال أيضاً : الفضائل أربع، إحداها الحكمة وقوامها الفكرة والثانية العفة وقوامها التغلب على الشهوة والثالث القوة وقوامها التغلب على الغضب، والرابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس.

﴿الله﴾ تفكر في ما يحدث في خلق الجنين في الرحم في ظلمات ثلاث.. ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر لرأيت التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا ترى المصور ولا آله فهل رأيت مصوراً أو فاعلاً لا ترى آله ومع ذلك يتشكل خلقه ﷻ..

ثم من تمام رحمته أنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تتكس وانقلب وتهياً للخروج وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه، ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى النقام الثدي، ثم لما كان بدنه سخيلاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في اللبن اللطيف المستخرج بين الفرث والدم شيئاً سائغاً خالصاً، وكيف خلق الثديين وجعل فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي .. قدر الحلمة على قدر فتحة الفم في الصبي ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجاً فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ثم كيف هداه إلى الامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع، ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخرج خلق الأسنان إلى تمام الحولين، لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغني عن السن وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف، ويحتاج إلى طعام غليظ ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأُنبت له الأسنان في وقت الحاجة..

فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثاة اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليها للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه.. فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه، ثم انظر كيف رزقه القدرة والتميز والعقل والهداية تدريجاً.. حتى يتكامل فيصير مرافقاً ثم شاباً ثم شيخاً إما شاكراً أو كفوراً ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ ﴾ (الإنسان: ١-٣)، فتأمل وتفكر في عظمة الرب ﷻ وهذا في شيء واحد من مخلوقاته وهو الإنسان وفي الإنسان أشياء كثيرة أخرى وكثير منها غير معلوم لأن فما بالك فيما جعل في الأرض في أكنافها وأنهارها وجبالها وهيا السكن للسكن وجعل الأرض فراشاً وكيف جعلها كفاتاً وأنه أرساها بالجبال الرواسي وأودع فيها المياه وفجر العيون وأسال الأنهار وجعل خزانات جوفية ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (الحجر: ٢٢)، وهكذا ترى في البوادي والأزهار والثمار والمعادن والجواهر وانقسامها إلى خسيس وثمين وهكذا جعل منها ما يصنعه الإنسان من حاجته وحتى الحلي والنفط والكبريت والقار وحتى الملح الذي يحتاجه لتطبيب طعامه وما في هذه الحيوانات من الأمور العظيمة والتناسب الدقيق الهندسي فتري العنكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونها حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ثم يبتدئ ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ثم كذلك يتردد ثانياً وثالثاً ويجعل بعد ما بينهما

متناسباً تناسباً هندسياً حتى إذا أحكم معاهد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة (الكسوة)، فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على مواضع التقاء اللحمة بالسدى ويراعي في جمع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البقّ والذباب ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكساً في الهواء ينتظر ذبابة تطير، فإذا طارت رمى بنفسه إليها فأخذه ولفّ خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى... أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه؟ أو تكون من نفسه؟ أو علمه آدمي؟

فإذا البصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الأبواب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات، وإذا رأيت حيواناً غريباً ولو دوداً تجدد التعجب .. وقال سبحان الله..!

❁ وهكذا ما خلقه الله في البحار وما يكون في قيعانها وفي السحاب وما يجتمع فيها من المطر وكيف ينزل وفي ملكوت السموات والأرض... والتفكر في مخلوقات الله قد أمر الله به وأنه ﷻ مدح عباده ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (ال عمران: ١٩١) وأمر في التفكير وحث عليه.. في النفس ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (الروم: ٨) يتفكرون في خلق السموات والأرض لماذا..؟ قال الشيخ عبد الرحمن

السعدي رحمه الله : " ليستدلوا بها على المقصود منها ودل هذا على أن التفكير عبادة من صفات أولياء الله العارفين فإذا تفكروا عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً فيقولون ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً سُبْحَنَكَ ﴾ (ال عمران: ١٩١) يعني نزهتك عن كل ما لا يليق بك"، بعض الناس تفكره فقط إلى حد إتيان الصنعة وأنها صنعة جميلة لكن المقصود الأعظم ليس فقط التعجب من دقة الصنع بل لشيء وراء ذلك..

عاشراً : المحبة :

والآن مع عمل كبير من أعمال القلوب فهو أساسها جميعاً ألا وهو محبة الله تعالى. المحبة هي الرأس والخوف والرجاء هما الجناحان والعبد يسير إلى الله بالمحبة والخوف والرجاء.

هذه المحبة هي المنزل التي فيها تنافس المتنافسون وإليها شخص العاملون وإلى علمها شمر السابقون وعليها تفرغ المحبون وبروح نسيمها تروح العابدون فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرّة العيون وسرور النفوس ونور العقول وعمارة الباطن وغاية الأمانى ونهاية الآمال وروح الحياة وحياة الأرواح.

وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقدّه فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلب جميع الأسقام واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، فهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى ما خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه.

تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً وأصليها، وتبوءهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخلها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب.

١- تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بحكمته البالغة أن المرء مع من أحب..، فيالها من نعمة على المحبين سابعة.

٢- تالله لقد سبق القوم السعاة وهم على ظهور الفرش نائمون وقد تقدموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون.

ما هي الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى؟

١- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤) ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذَّبَ رُوحَ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩)، فهذا هو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم من إنزال القرآن، وأن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يقرأ ويتجاوب مع كل آية بمشاعره وعواطفه دعاءً واستغفاراً ورجاءً. قال حذيفة صليت مع الرسول ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت يركع عند المائة ثم مضى، فقلت يصلي بها في ركعة فمضى فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر

بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوّذ تعوّذ. وكان ﷺ إذا قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (الأعلى: ١) قال سبحان ربي الأعلى. فلا شيء أنفع للقلب وأجلب لمحبة الله من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والشكر والصبر وسائر الأحوال وأعمال القلوب . ثم يزجر عن الصفات المذمومة والأفعال القبيحة التي تفسد القلب وتهلكه .

قال الحسن البصري: (أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً) فالتفكير بالقرآن أصل صلاح القلب والعمل به متم لذلك ولا بد لهذا من هذا.

٢- التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض لأنها توصل إلى درجة المحبة كما جاء في الحديث القدسي: { من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولأن استعاذني لأعيذنه }

أسباب محبة الله :

فتضمن هذا الحديث الإلهي الشريف حصر أسباب محبة الله في أمرين : أداء فرائضه، والتقرب إليه بالنوافل.

وأخبر سبحانه أن أداء الفرائض أحب ما يتقرب إليه المتقربون ثم

بعدها النوافل، وأن المحب يستكثر من النوافل، لا يزال يكثر منها حتى يصير محبوباً لله فإذا صار محبوباً شغلته المحبة عن أي أفكار وخواطر أخرى أجنبية غريبة عن العبادة فلا تخطر على باله وإذا جاءت تتصرف وتتطرد بسرعة، لأنه صار عنده من مراقبة الله ما يمنع هذه الأفكار من الورد ويكون عنده من المهابة والعظمة لربه ما يمنع من الانشغال بأي شيء أجنبي عن العبادة، ويكون عنده من الإجلال لله والأنس به والشوق إليه ما يجعله دائماً ذاكراً تالياً عابداً عاملاً.

فإذا قيل أن هناك أناس وهذا أكثر حال المسلمين، يستكثر من النوافل وهم مقصرون في الواجبات ويقتفون المعاصي فما الحل؟ ليس الحل في ترك النوافل فتركها يزداد حاله سوءاً فالنوافل تجبر النقص، بل الحل في البقاء على النوافل لكن يصلح حال الواجبات ويصلح حال ترك المحرمات فيمتنع عن المحرمات ويزيد في النوافل. وفي الحديث كما قال ابن حجر عظم قدر الصلاة فإنه ينشأ عنها محبة الله للعبد الذي يتقرب بها وذلك لأنها محل المناجاة والقربى، ولا واسط فيها بين العبد وربّه، ولا شيء أقر لعين العبد منها ومن كانت قرّة عينه في شيء فإنه يود أنه لا يفارقه ولا يخرج منه لأن فيه نعيمه وبه تطيب حياته وهذا للعابد. إذا المحافظة على الصلاة فرضاً ونفلاً من أعظم ما يجلب المحبة ومنها قيام الليل. ولا تكاد تجد فريضة إلا وله نوافل (الصلاة - الصيام - الزكاة - الحج - صلة الرحم والبر بالوالدين) حتى المرء إذا قصر في الواجب وجد ما يعوّض به، لكن لا يمكن للمرء أن يشتغل بالنوافل ويترك الواجبات وهذا من خلل التصور واضطراب الميزان وخلل المنهج.

٣- أن يكثر ذكر الله باللسان والقلب والعمل فنصيبه من المحبة على حسب نصيبه من هذا الذكر، ولهذا أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وأنه سبب للفلاح ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة: ١٠) وأنتى على أهل الذكر ومدحهم وأخبر نبيه ﷺ أنه فوق منزلة الجهاد، وجعل الله هذا الذكر حتى بعد العبادات العظيمة وخاتمة الأعمال الصالحة .

وبعد الصيام ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

والحج ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ (البقرة: ٢٠٠) .

والصلاة ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ (النساء: ١٠٣) .

والجمعة إذا انقضت ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الجمعة: ١٠) وهكذا..

فالذكر هذا مقارن للأعمال الصالحة { وأقم الصلاة لذكري }، وبناء على ذلك فإن ذكر الله تعالى من أعظم ما يوصل إلى محبته ﷻ ..

٤- أن تؤثر محابه على محابك عند غلبات الهوى، وأن تتسنى إلى محابه ولو صعب المرتقى، وعلمة هذا الإبتار شيطان:

أ- فعل ما يحبه الله ولو كانت نفسك تكرهه.

ب- ترك ما يكرهه الله ولو كانت نفسك تحبه.

وبهذين الأمرين يصح مقام الإيثار، ومؤونة هذا الإيثار شديدة لقوة داعي الهوى والطبع والعادة ولكن المؤمن الذي يريد أن يصل إلى مرتبة المحبة وأن يجلب محبة الله له يتكلف المؤونة الشديدة ويرغم نفسه الضعيفة لكي يصل إلى هذا ويحقق هذا الإيثار، فيشمر وإن عظمت المحنة ويتحمل الخطر الجسيم إرضاء للملك ولأجل الحصول على الفوز الكبير، فإن ثمرة هذا في العاجل والآجل ليست تشبهه ثمرة من الثمرات ولا تتحقق المحبة إلا بهذا الإيثار.

قال أحدهم: ((ما ابتلى الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبة ما هو أفضل منه وأنفع وأخير وأدوم وليجاهد نفسه على تركها لله فتورثه هذه المجاهدة محبة الله والوصول إلى المحبوب الأعلى، فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدت إرادته لها وشوقه إليها ؛ صرف ذلك الشوق والإرادة بشوق أعظم ومحبة أكبر وهي محبة الله ﷻ)).

أعظم منزلة للمرأة في الجنة :

والقاعدة أن الإنسان لا يمكن أن يترك محبوباً إلا لمحبيب أعلى منه .

فكان لأجل ذلك من مشى إلى محبوبه على الجمر والشوك؛ أعظم من مشى إليه راكباً على النجائب. فليس من أثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن أثره مع عدم منازعتها، لماذا كان صالحو البشر أفضل من الملائكة؟، لأن الملائكة ليس لديهم شهوات ومنازعات، منقادون إلى الله بطبيعتهم، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ما من موضع أربعة أصابع في السماء إلا وفيه ملك قائم أو راکع أو ساجد ولذلك أطّت السماء من ثقل الملائكة الذين يعبدون الله فيها، لكن الذي يسبح ويعبد دون أن يفتقر مع منازعة نفسه والشهوات وهذه العوائق والعلائق ومع ذلك صامد صابر ؛ هذا أعلى . ولماذا كانت المرأة من البشر في الجنة أفضل من الحور العين؟ بمجاهدتها نفسها ومراغمتها نفسها والتغلب على الشهوات وصبرها وصلاتها وصومها وعبادتها. فهو سبحانه يبتلي عبده بالشهوات إما حجاباً له عنه أو حجاباً له يوصله إلى رضاه.

الفهرس

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٥٧	منازل ودرجات الخوف	٣	المقدمة
٥٩	فوائد الخوف	٦	نص السؤال
٦١	ثمرات الخوف من الله	٧	كيف تصلح القلوب
٦٣	الأسباب الجالبة للخوف	١٠	الإخلاص سبب المغفرة الكبرى
٦٨	موانع الخوف	١٦	أقوال بعض العلماء في الإخلاص
٧٠	خامساً : الشكر	١٧	تنبيهات في مسألة الإخلاص
٧١	مقامات الشكر في الدين	١٨	المسألة فيها تفصيل
٧٥	بم يكون الشكر	١٩	علامات الإخلاص
٧٩	من الأشياء التي يؤدي إلى الشكر	٢٠	التوكل
٨١	سادساً : الرضا	٢٦	أمر الله بالتوكل
٨٣	رضا الله أكبر من الجنة	٢٩	حقيقة التوكل
٨٤	سابعاً : الصبر	٣٠	التوكل على الله
٨٥	أنواع الصبر	٣٦	الأمر التي تضاد التوكل
٩٠	ما حكم الصبر	٣٨	فوائد التوكل
٩١	مراتب الصبر	٤٠	قصص مع المتوكلين
٩٢	مجالات الصبر	٤٣	ثالثاً : الرجاء
٩٦	ثامناً : المحاسبة	٤٥	أسباب وعوامل الثبات
٩٨	فوائد المحاسبة ومصلحتها	٤٥	درجات الوصول إلى تحقيق الرجاء
٩٨	تاسعاً : التفكير	٤٧	الرجاء دواء يحتاج له رجلان
١٠٥	عاشراً : المحبة	٤٨	ثمرات الرجاء
١٠٦	ما هي الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى	٥١	أنواع الرجاء
١٠٧	أسباب محبة الله	٥٢	درجات الرجاء
١١١	أعظم منزلة للمرأة في الجنة	٥٥	رابعاً : الخوف